

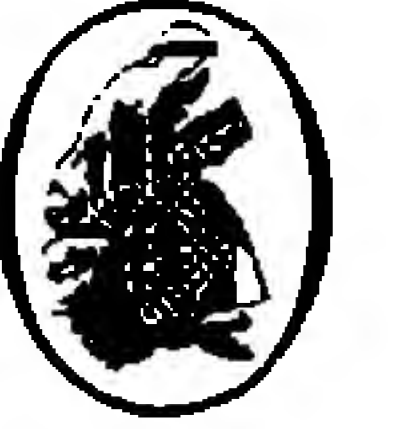
ناصر الدين الأسد

نشأة الشعر الجاهلي وتطوره
(دراسة في المنهج)

محاولة أولى



نشأة الشعر الجاهليّ وتطوّره (دراسة في المنهج) محاولة أولى / دراسات أدبيّة
د. ناصر الدين الأسد / مؤلّف من الأردن
الطبعة العربيّة الأولى ، ١٩٩٩
حقوق الطبع محفوظة



المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :

بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ،
هاتف : ٨٠٧٩٠٠ / ٨٠٧٩٠١

التوزيع في الأردن :

دار الفارس للنشر والتوزيع

عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفكس : ٥٦٨٥٥٠١

E-mail : mkayyali@nets.com.jo

تصميم الغلاف والإشراف الفني :

سميح سبيح

لوحة الغلاف :

عبد الحسين تويج / العراق

الصفّ الضوئي :

مؤسسة آل البيت / عمّان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر .

رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ١٩٩٩/٧/٨٩٩

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبات والوثائق الوطنيّة ١٩٩٩/٧/١٢٨٤

ناصر الدين الأسد

نشأة الشعر الجاهلي وتطوره
(دراسة في المنهج)

محاولة أولى



إهداء

إلى أم بشر
الحبيبة والزوجة

هَرَمَ الزَّمانُ وحبُّنا لما يَزَلْ
وأنا وأنتِ على الوفاء مُقامُنا
غَضًّا.. كعهد الأَمسِ لم يَتَبَدَّلِ
يا أمُّ بشرٍ.. كالزَّمانِ الأوَّلِ

ناصر الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ما بين دراستي « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية »^(١) وهذه الدراسة ثلاثة وأربعون عاماً ، صدر خلالها كثير من الكتب والمقالات عن الشعر الجاهلي : باللغة العربية وبعده من اللغات الأجنبية ، شاركت في بعضها . وكنت كلما قرأت هذا الشعر ، أو بعض ما كُتب عنه ، أحسست بالرهبة أمام تلك الآفاق الرحبة التي يفتحها لقارئه وناقده ، وتلك الرؤى المتماوجة التي تنطلق من صورته وما يوحى به من أحاسيس ويضئ من فضاءات . فكنت دائماً أكتفي بأن أعيش في ذلك الشعر لنفسي ، مستغرقاً في إحياءاته ومباهجه وما يكشف عنه من عمق التجربة الإنسانية وأسرار النفوس وخوالجها ، ومن سحر البيان وبديع النسيج ودقيق الوصف . وكان حسبي - حين كنت أريد الكتابة عنه - أن أطوف حوله ، ألمسه من خارجه ، متحدثاً عن بعض موضوعاته ، أو محققاً لبعض نصوصه .

وذلك ما فعلته في هذه الصفحات ، فقد اخترت موضوعاً تعددت

(١) صدرت الطبعة الأولى سنة ١٩٥٦ عن دار المعارف بمصر .

الإشارات إليه في أكثر ما كُتِبَ عن الشعر الجاهلي ، وكانت إشاراتٍ عابرةً ولحات خاطفةً ، سوى في كتابين أو ثلاثة ذكرتها في هذه الدراسة . وقد ظَلَلْتُ زمنًا مترددًا في نشر هذه الفصول ، شاكرًا في قيمتها وفي ما تضيفه إلى البحث الجاد في هذا الموضوع . إلى أن غلبَ الإقدامُ الترددَ ، وزاد شيءٌ من اليقين على الشكِّ ، فدفعْتُ بها إلى المطبعة عسى أن تثير من النقاش ما يعود على البحث بالفائدة ، فأصحح ما فيه من خطأ وأستدرك ما فيه من نقص .

والحمد لله الموفق لكل خير .

ناصر الدين الأسد

عمّان :
غُرّة ربيع الآخر ١٤٢٠ هـ
١٤/٧/١٩٩٩ م

المحتويات

١	الفصل الأول :	١١
٢	الفصل الثاني :	١٩
٣	الفصل الثالث :	٤٧
٤	الفصل الرابع :	٦١
٥	الفصل الخامس :	٦٩
٦	الفصل السادس :	٨٣
٧	الفصل السابع :	٩٥
٨	الفصل الثامن :	١٠٩
	خاتمة	

الفصل الأول

مقدمتان



(١)

نُضطرّ أحياناً في البحث العلمي - وخاصة في مقدّماته - إلى أن نذكر أموراً هي من الأحكام المسلّم بصحتها دون الحاجة إلى إقامة البرهان عليها ، لأنها من البديهيات أو مما يجري مجراها ، وهو ما عناه أبو الطيب بقوله :

وليس يصحّ في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومن هذه المسلّمات أو البديهيات أن « الجاهلية » السابقة للإسلام لم تكن بداية الزمن العربي ، فقد سبقتها جاهلية أو جاهليات قديمة سماها القرآن الكريم « الجاهلية الأولى »^(١) وليس بين أيدينا تحديد علمي لزمن تلك الجاهلية أو الجاهليات ، وإن كان المفسّرون ذهبوا في تحديد زمنها مذاهب ظنيّة^(٢). ومهما يكن من أمر زمنها فهي ليست تلك القرون القليلة السابقة للإسلام . ومما يستأنس به لنفي ذلك - بالإضافة إلى وصفها بالجاهلية الأولى - أن الله عزّ وجلّ قد ذكر الجاهلية دون وصف في ثلاث آيات من أربع سور متعددة ، ويستدلّ من ذلك ومن سياق الآيات أن

(١) الأحزاب : ٣٣ .

(٢) فقالوا حيناً إنها كانت بين آدم ونوح وقدّروها بثمانمئة سنة ، وقالوا حيناً ثانياً إنها كانت فيما بين نوح وإدريس وكانت ألف سنة ، وقالوا حيناً ثالثاً إنها الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام . وكل ذلك رجم بالغيب .

المقصود بالجاهلية الأخرى الجاهلية القريبة من الإسلام .

وكما أن هذه الجاهلية القريبة لم تكن بداية الزمن العربي ، فإن القبائل العربية التي عاشت فيها لم توجد من فراغ ، ولم تكن جذوعاً لاجذور لها . وإنما هي امتداد تاريخي لقبائل سبقتها أشار إليها القرآن الكريم وذكرتها كتب التاريخ ، مثل : عاد وثمود والعمالة وطسم وجديس ، وسواهم . والقول بأنها من العرب البائدة أو أنه لم تبق لها باقية ، لا يعني الفناء الكامل للأفراد ، وإنما يعني زوال كيان القبيلة واندثار اسمها ، مع بقاء آحاد أو مجموعات اندمجت في القبائل الأخرى « الباقية » . ولا بد أيضاً - عند ذكر « الجاهلية الأولى » وذكر هذه القبائل القديمة - من أن نشير إلى أن الله عز وجل وصف عاداً بـ « الأولى » في آية واحدة^(١)، على حين ذكرها في ثلاث وعشرين سورة أخرى دون وصف . وأشار تعالى في تعداد تلك القبائل أو الشعوب إلى غيرها فقال ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ ، وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾^(٢) .

وليس من شك في أن هذه القبائل القديمة كانت في جزيرة العرب . فقد ذكر الله تعالى أن هوداً أنذر قومه بالأحقاف^(٣)، وأشار إلى أصحاب الحجر^(٤)، وهم ثمود . وسميت سورتان بهذين الموضعين ، وقال ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾^(٥) . وذكرت كتب التراث أن طسماً وجديساً وسواهما كانت في اليمامة وفي مواضع أخرى من الجزيرة . ولا

(١) النجم : ٥٠ .

(٢) الفرقان : ٣٨ .

(٣) الأحقاف : ٢١ .

(٤) الحجر : ٨٠ .

(٥) آل عمران : ٩٦ .

نريد ان نتوسع في هذا الموضوع ، وإنما ذكرناه لنقول إن عرب الجاهلية الأخيرة هم امتداد لمن سبقهم ، ومرحلة حديثة من مراحلهم . وأن الذي لا شك فيه أن القبائل العربية القديمة كانت لها لغتها أو لغاتها التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً ، وأن تلك اللغة تدرّجت في مراحل حتى وصلت إلى المرحلة الأخيرة من اللغة العربية وهي التي نظمت بها قصائد الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا ثم نزل بها القرآن الكريم ، وأن لها - كسائر القبائل والشعوب في كل مكان على مدى التاريخ - شعرها الذي نظمته بلغتها أو لغاتها والذي تطور حتى وصل إلينا في صورة ما نسميه بالشعر الجاهلي .

ولذلك فإن من البديهي أن نقول إن العرب قديمو الوجود في جزيرتهم ، وإنهم سبقوا عرب الجاهلية الأخيرة بقرون لا نعرف عددها إلا ما ذكرته بعض النقوش البابلية من إشارات ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد^(١) . ولكن هذا لا يغني شيئاً فيما نحن بصددده إلا على الوجه الذي سنذكره في الصفحات التالية .

(١) انظر مثلاً نص تيغلاث بلاصر على حجر نمرود في القرن الثامن قبل الميلاد وهو من جملة :
Ancient Record of Assyria and Babylonia, Danial David Luckenbill, University of
Chicago Press, 1920.

فقد جاء فيه :

From the beginning of my rule , to the seventeenth year of my reign , the (tribes of) Itu , Rubu ' , Hamarani, Luhuat, Harilu Rubbu, Rapiku, Hiranu, Rabilu, Nasiru, Gulusu, Nabatu, Rahiku, Ka-,...Rummulutu, Adile, Kipre, Utudu, Gurumu, Bagdadu, Hindiru, Damunu, Dunanu , Nilku, Rade, Da... , Ubulu, Karma, Amlatu, Ru'a, Kabi', Li'tau. Marusu, Amatu, Hagaranu, (the cities of) Dur-Kurigalzu Adidu(?), the strongholds of Sarragiti, of Labbanat , of Kar-bel-matati, - all of the Arameans of the banks of the Tigris, the Euphrates and the Surappi, even to the Uknu, by the shore of the lower sea (Persian Gulf) , I conquered , many of them I slew, I carried off their spoil.

وهكذا نرى أن البحث في نشأة الشعر الجاهلي وأوليّاته كالبحث في نشأة اللغة العربية نفسها وبداياتها ، فقد وصلا إلينا كلاهما على الصورة التي عرفناهما عليها في الجاهلية الأخيرة . فإذا كانت تلك الصورة هي البدء والنشأة ، فإنها لا شك مخالفة لسنن الحياة وطبائع الأشياء . إذ إن الاكتمال لا يكون إلا بعد مراحل من التطور تبدأ بالضعف والنقص ، وتعرض للوهن . وإن لم تكن هذه الصورة هي البدء ، فما هي المراحل والصور التي سبقتها ؟ وكيف يتأتى لنا أن نعرفها ، وأين نستطيع أن نلمسها ؟

وإذا كان البحث في أوليات الأمور - شأنه شأن سائر البحث العلمي النظري - يحتاج إلى نصوص يعتمد عليها الباحث ، ويمحصها ، ويفاضل بينها ، ويستخلص منها نتائج ، فإنه يختلف بذلك عن البحث العلمي في الموضوعات التي تطوّرت ثم استقرّت بعد أن تجاوزت مرحلة النشأة الأولى . فغالباً ما تكون النصوص والروايات والمعلومات متوافرة عن هذه الموضوعات ، فتمكّن الباحث من تمحيص الأخبار ، وتغليب نص على آخر أو رواية على غيرها والتدرج من خلال ما لديه من معلومات إلى الوصول إلى نتائج وأحكام . على حين تكون نشأة الأشياء ملفوفة بكثير من الغموض ، وغالباً ما تُعوزها النصوص والمعلومات الكافية .

ثم إن البحث العلمي النظري يختلف عن البحث العلمي التجريبي الذي يستطيع الباحث فيه أن يتثبت منه ، ويقيم عليه البرهان ، بإعادة

التجربة ، بعد أن يومر لها الظروف والشروط نفسها . وحين يفتقد الباحث النصوص ، ولا تسعفه التجربة ، فإنه يلجأ إلى الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً ، إلا إذا ساندته افتراضات واستنتاجات وترجيحات من حالات مشابهة ، وإن لم تكن بالضرورة مطابقة ، عند الأمم نفسها ، أو عند شعوب وأمم أخرى في بيئات متقاربة . والأخذ بالتشابه بين هذه الحالات ليس مأموناً دائماً ، ولا بدّ من الحذر والحيطه في إصدار الأحكام ، بتقليب الحالات على جوانبها المتعددة لرؤية وجوه الاختلاف والافتراق التي قد تختفي وراء وجوه الائتلاف والاتفاق .

ومع ذلك ، فإن مخاطر الطريق تغري بركوب الخطر وكشف المجاهل . وما البحث العلمي إلا ضرب من المخاطرة والمجازفة . ولذلك كثر الباحثون والكتابون عن أولية الشعر العربي ونشأته : بعلم ، وبشبه علم ، وبغير علم . وطال حديثهم وقلت نتيجته وفائدته ، أو كما قال البيروني : « طَوَّلْتُ فِي الْحِكَايَةِ وَإِنْ نَزَرْتُ عَائِدْتُهَا » ^(١) .

فإذا كان ذلك كذلك ، وكان البحث عن نشأة الشعر العربي ، ونماذجه الأولى ، وتطوره إلى أن وصل إلينا في صورته التي عرفناها في الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا ، نوعاً من الضرب في التيه ، فإن من الطبيعي ألا يطمع الباحث الجاد ، في الوصول إلى صورة متكاملة لنشأة الشعر العربي ، ولا إلى سلسلة متماسكة من نماذجه الأولى وتطورها . وربما كان قصارى جهد هذا الباحث الجاد أن يتناول قضايا وأفكاراً

(١) كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، ص : ١٠٣ - ١٠٤ ، عالم الكتب ، بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣ م .

متفرقة ، يقف عندها متأنثياً ، يعرض ما وردَ فيها من أقوال ، ويمحص ما جاء عنها من آراء وروايات ، ويردّها إلى أصولها ومصادرها وأصحابها الأولين ، ويحاكمها ، فيحكم لها أو عليها ، بما فيها من صحة الدليل النقلى ، وقوة الدليل العقلى . عسى أن تكون هذه القضايا والأفكار معالم على الطريق تهدي بعض السالكين ، فتحفزهم إلى مواصلة السير واستكمالها ، أو تصدّهم عنه وتدعوهم إلى النكوص .

الفصل الثاني

نشأة الشعر الجاهلي بين كتابين

و موضوع القضية الأولى هو : تأثر العرب بغيرهم في نشأة شعرهم ، وأخذهم بحور هذا الشعر وأوزانه وموسيقاه عن أمم أخرى . وهي قضية تدور حول نفسها بين كتابين عربيين ، ومجموعة من آراء المستشرقين . أما الكتابان فأولهما « المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها »^(١) للدكتور عبد الله الطيب وثانيهما كتاب « بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف »^(٢) للدكتور محمد عوني عبد الرؤوف .

وأما مجموعة آراء المستشرقين فهي مبثوثة في الكتاب الثاني مع الإشارة فيه إلى مصادرها .

ويبدأ تفصيل القضية عند الدكتور عبد الله الطيب بقوله :^(٣) « ذكرنا ستة أطوار^(٤) رجحنا أنها هي المراحل التي مرّ بها نظم الكلام العربي من الموازنة اللفظية إلى الصياغة البحرية القافية المحكمة . وبين هذه المراحل مرحلة مهمّة جداً لم نطّل الوقوف عندها . . . هي المرحلة الخامسة التي انتقل أسلوب النظم فيها من السجع الموزون إلى التسميط المحكم ، وقد قلنا عنها في حديثنا السابق : إن الناظم بعد أن عرف الأسجاع الموزونة

(١) نشر الدار السودانية . وقد طبع الجزء الأول والثاني في القاهرة سنة ١٩٥٥ م ، ثم أعيد طبعهما مع جزء ثالث في بيروت سنة ١٩٧٠ م .

(٢) نشر مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٦ م .

(٣) ٢ : ٧٤٥ - ٧٤٨ .

(٤) فصل القول في هذه الأطوار الستة في ٢ : ٧٣٢ - ٧٣٩ .

اهتدى إلى أولى خطوات الوزن الرصين ، وما هو إلا قليل حتى جعل
يَعْمَدُ إلى التسميط ، كلما جاء بأسجاع ثلاثة متوازنة أتبعها سبعة تخالفها
وتوافق أخرى تقع في موقعها بعد ثلاثة أقسام مسجوعة تالية . وليس لدينا
من هذا النوع شيء نستشهد به ، ولكن لدينا أشعاراً تحمل آثاره قوية
واضحة ... » .

فالمؤلف في هذه الفقرة يذهب إلى أن نشأة الأوزان عند العرب
مرت بمراحل متدرّجة ، رأى أنها ست مراحل ، وقف عند أربع منها
وقفات متأنية واضحة واستشهد عليها بما يشير إليها ويوضحها ، ولكنه
خطف وقفته عند المرحلة الخامسة خطفاً ، ولم يجد ما يستشهد عليها به ،
وسيدكر في الفقرة التالية أن هذه المرحلة تمثل « حلقة مفقودة في تطور
النظم العربي » .

ثم إن المؤلف يرى أن من المراحل الأولى لنشأة الشعر العربي
وتطوره ما سماه < التسميط > ، ووصفه بأن الناظم < كلما جاء بأسجاع
ثلاثة متوازنة أتبعها سبعة تخالفها وتوافق أخرى تقع في موقعها بعد ثلاثة
أقسام مسجوعة تالية > . ومثل هذا الوصف ينطبق على نظم مركّب لا
يكون في البدايات ، وإنما يجيء بعد صنعة معقدة ومراحل متطورة .

والجو العام لحديث المؤلف يوحي بأن هذه المراحل كانت نمواً
داخلياً في وجدان الأمة العربية ، وتطوراً ذاتياً في ذوقها ، ومما يوحي
بهذا الجوّ قوله : إن الناظم بعد أن عرف الأسجاع الموزونة « اهتدى إلى
أولى خطوات الوزن الرصين » . وهذا كله يجعل نشأة الشعر العربي
وتطور صيغته وأوزانه وموسيقاه نشأة عربية أصيلة وتطوراً داخلياً ذاتياً .

ولكن المؤلف لا يلبث أن يمضي قائلاً^(١): « ولعلّ القارىء يكون قد حدس من كلامنا هذا أن المرحلة الخامسة تمثّل حلقة مفقودة في تطور النظم العربي ، يمكننا أن نستدل عليها بما وصلنا بعدها من شعر هُذيل والخنساء وبعض تقسيمات امرئ القيس ... وهنا نتساءل : هل هذه المرحلة الخامسة المفقودة التي تدلّ عليها هذه الشواهد ، جاءت طبيعية سليقية ، تدعوها سجيّة التوازن التي لا تفارق السجع والمزاوجة ...؟ ربما يميل بنا الظنّ بادىء الرأي إلى القول بأن الفطرة السليمة ، وطبيعة التكافؤ في السجع والازدواج ، هما اللتان مكّنتا من كلّ هذا ، ولكننا نسأل بعد : لماذا لم تفعل الفطرة السليمة مثل هذا الفعل في اللغة العبرية القديمة ، التي نزلت بها التوراة في الدهر الأول ، ولماذا كان أسلوب المزامير ، والأناشيد العبرية ، والأحاديث الإنجيلية الرفيعة التي تحدّث بها المسيح ، كل ذلك مبنياً على أسلوب الموازنة ، وليس فيه شيء من الأعاريض ؟ أليست اللغة العبرية التي نزلت بها التوراة ، والآرامية التي تكلم بها عيسى كِلتاهما من أخوات العربية وتشبهانها شَبهاً عظيماً ؟ فلماذا إذن لم تهتديا بالفطرة إلى ما اهتدت إليه العربية أو إلى شيء شبيه به ؟ » .

ولا ندري كيف ذهب المؤلف^(٢) الفاضل إلى هذا الحكم القاطع

(١) ٢ : ٧٤٨ .

(٢) الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب مؤلف كتاب « المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها » عالم راسخ القِدم في علوم العربية وآدابها ، طويل الباع فيها ، متمكّن من اللغة الإنكليزية ، وقد اطلّع من خلالها على آدابها وعلى الآداب الإغريقية واللاتينية والآداب الأوربية الحديثة ، وهو شاعر متفنن ، وراويّة حافظ ، وأحاديثه في مجالسه غزيرة النفع لكثرة حفظه واتّقاد ذهنه واتّساع آفاقه . وهو قبل ذلك وبعده صديق كريم ، أعتزّ بصداقته ، وأحرص على استدامة مودّته .

حين قال إن الفطرة السليمة لم تفعل مثل هذا الفعل في اللغة العبرية القديمة ... إلى آخر ما ذكره عن أسلوب المزامير والأناشيد العبرية والأحاديث الإنجيلية ، وعن خلوّ اللغة العبرية القديمة من الأعاريض ، في حين أشار في الحاشية إلى آراء تخالف هذا الرأي وتذهب إلى غيره^(١) ؟ ولو سلّمنا معه بأن اللغة العبرية واللغة الآرامية قد خلّتا من الأعاريض ولم تهديهما الفطرة السليمة إليها ، فهل حتمّ على العربية أن تكون كما كانتا - ولو أنهما أختان لها كما قال - وأن تعجز عن الوصول إلى النظم العروضي بهدي الفطرة ؟

وربما كان كلّ ذلك مقدّمة مهّد بها المؤلّف بين يديّ ما أراد أن يصل إليه من قوله : إن اللغة العربية « تعرّضت من عوامل التطور لما لم تتعرّض له أخواتها ، ولعلّ أهم هذه العوامل جميعاً أن يكون اقتباسها الوزن - في صيغة بدائية - من فارس ، أو من الشعر اليوناني ، من طريق آثاره التي تركها في الأدب الفارسي بعد غزوة الإسكندر ... »^(٢) .

وكأنما أدرك المؤلّف - وهو اللبيب اللّماح - ما بين أجزاء كلامه من تباعد فقال بعقب ما سبق^(٣) : « ولا يهولنك هذا الحدس فتطالبني بالدليل النقلي ، فأنا لا أزعم أن بعض العرب الأولين اطلّعوا على « أوميروس » في كتاب إغريقي ، أو زبروا صحيفة مما خلفه دارا وقمبيز ، وإنما ألّفت إلى

(١) ٢ : ٧٤٨ - ٧٤٩ ، حاشية ١ .

(٢) ٢ : ٧٤٨ . وسنشير بعد قليل إلى رأي اثنين من المستشرقين الإنجليز - هما براون وفارمر - أن الفرس لم يكونوا يعرفون العروض في شعرهم في الجاهلية وصدر الإسلام .

(٣) ٢ : ٧٤٨ - ٧٥٠ .

هذه الطريقة المحكمة من العروض والقافية ، التي سلكها العرب ، فأعجز
أن أقنع بأن الفطرة السليمة وحدها هي التي طوّرتها من الموازنة
والازدواج إلى هذا القدر العظيم من الإحكام الذي يعتمد على كمّ
المقطع ورنّته ، لا مقابلة التركيب بالتركيب كما هي حال النظم في
العبرية القديمة . ثم أنظر في حال الأمم القديمة فأجد الإغريق هم قد
أحكموا الشعر في الزمان الغابر ، مثل إحكام العرب (وأكثر من إحكامهم
في رأي النقاد الفرنجة) وقد عرفوا الوزن المقطعي الكميّ : سداسيّاً وغير
سداسيّ ، وعليه بنّوا روائعهم في الملاحم والمسرحيات ، هكذا يخبرنا
النقاد الإنجليز الذين درسوا الإغريقية عندما يعرضون لتحليل الوزن عند
شعرائهم أمثال : شكسبير ومارلو وپوپ . وهؤلاء الإغريق قد فتحوا
الدنيا في عهد الإسكندر ، وأثّروا أعظم تأثير في الفُرس من جهة دولتهم
التي شادوها في بلاد ما وراء النهر (١) ثم جاء الرومان أولو الملك الواسع
فنشروا عِلْمَ يونان في كل مكان ، وأنت تعلم أن حدود دولتهم كانت عند
الفرات وبادية الشام ، وأن سفنهم كانت تصل إلى بلاد اليمن
وحضرموت ، ثم بعد تصدّع دولة الرومان القديمة ونهوض بيزنطة بالشرق
استحكم الاتصال بين الإغريق والفرس . وكلا المدليّتين الإغريقية
والفارسية (التي تأثرت بها) كانتا تتاخمان بلاد العرب ولا يفوت
الأستاذ توينبي - وهو يقصُّ علينا أمر الرومان واليونان - أن يذكر أن
مدنّياتهم قد أرسلت إشعاعات قويّة وصلت إلى أعماق الجزيرة
العربية . . . فهل تستبعد إذن أيها القاريء الكريم أن يكون الوزن المحكم
من بعض ما وصل من إشعاعات المدنية الإغريقية الفارسية ؟ ألا نجد أن

اللغة السريانية قد استعملت الوزن المقطعي بسيطاً بلا كمّ ، وهو شيء لم يكن معروفاً في أمّها الآرامية ؟ أليس في قوة اتصال السريان بالحضارة الإغريقية ما يشرح سرّ هذا الوزن المقطعي الدخيل ؟ وإذن نرى أن إشعاع الإغريق قد أصاب السريان فأثر فيهم هذا التأثير ، ألا يجوز أن يكون قد أصاب العرب فأثر فيهم تأثيراً أقوى عن طريق المدنية الفارسية ؟ » .

ولا يقف المؤلّف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه إلى حديث طويل بعده يدور كله على هذه المعاني غير المترابطة ، دون أن يقدم دليلاً ، أو ترجيحاً ، أو مثلاً حقيقياً تاريخياً ، على ما يقول . وإنما كلامه كلّه - كما رأيت - أسئلة تقوم على : « فهل تستبعد أن » أو « ألا تجد أن » أو « ألا يجوز أن » وأضرابها مما تحتمل الشيء ونقيضه . وقدّموا قالوا إن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال بطل به الاستدلال . ثم استرجع قوله : « وإنما ألّفتُ إلى هذه الطريقة المحكّمة من العروض والقافية التي سلكها العرب فأعجز أن أقنع بأن الفطرة السليمة وحدها هي التي طورتها . . . إلى هذا القدر العظيم من الإحكام . . . ثم أنظر في حال الأمم القديمة فأجد الإغريق هم قد أحكموا الشعر في الزمان الغابر مثل إحكام العرب . . . ولا يفوت الأستاذ توينبي - وهو يقص علينا أمر الرومان واليونان - أن يذكر أن مدنياتهم قد أرسلت إشعاعات قوية وصلت إلى أعماق الجزيرة العربية . . . فهل تستبعد إذن أيها القارئ الكريم أن يكون الوزن المحكم من بعض ما وصل من إشعاعات المدنية الإغريقية الفارسية ؟ » استرجع مثل هذا القول وتأمّله تجد أن الكلام أبعدُ شيء عن مناهج البحث العلمي وطرق الاستدلال والاستنتاج . وقد

احتاط المؤلف في البداية فأهاب بنا ألا نطالبه بالدليل النقلي ، فأوهمنا بذلك أنه جاء بالدليل العقلي ، فلما ظهر له - بعد طول تطواف أنه لم يجيء بشيء ، استدرك - على استتار - في حاشية الصفحة بقوله^(١) : « لايسبقن إلى وهمك يا سيدي أنني أريد إلى أن العرب تأثروا بالفرس ، الذين تأثروا بالسريان ، الذين تأثروا بالإغريق (!) فهذا حدس بعيد (!) ثم إن السريان لم يزدهر أمرهم بالرُّها إلا في القرن السادس الميلادي وفي هذا القرن عاش امرؤ القيس وعاش قبله المهلهل وجماعة من شعراء ربيعة . فلا بد أن يكون تطور النظم العربي ودخول الوزن المقطعي الكمي فيه قد سبق ازدهار السريانية بزمان قديم (١١) وكل الذي أريد إليه هو أن الوزن المقطعي الإغريقي سرى فأصاب أطرافاً من الآرامية أدت إلى الوزن المقطعي السرياني ، وأصاب أطرافاً من العربية ، فأدى إلى الأعاريض العربية المحكمة . وليس الأمر ضربة لازب أن يحدث الإشعاعُ الإغريقي في جميع اللغات السامية أثراً واحداً ، فهي تتفاوت في الجودة والرصانة والقابلية للنماء . »

ومع كل هذه الافتراضات والاحتمالات والتساؤلات فإنه ينتهي إلى يقين - في رأيه - فيقول^(٢) : « وقد كان أهل مشرق الجزيرة العربية ، من قبائل ربيعة وتميم وإياد ، هم أول من نقل الوزن عن فارس - فيما أرى - لقربهم منها ، واحتكاكهم بها ، وقلة تحفظهم في الأخذ عن مدنيتهما ،

(١) ٢ : ٧٥٠ ، حاشية ٢ .

(٢) ٢ : ٧٥١ .

والمحاكاة لها ما استطاعوا . كما قد كان أهل الحجاز هم آخر من استعمل الوزن ، وإنما أخذوه من جيرانهم من المجموعة التميمية . . . »
وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى اثنين من كبار المستشرقين الإنجليز ، هما : إدوارد ج . براون Browne في مقالته « مصادر دولتشاه »^(١) وهنري جورج فارمر Henry George Farmer في كتابه « تاريخ الموسيقى العربية »^(٢) فقد ذهبا إلى أن الفُرس لم يعرفوا العروض في العصر الجاهلي ولا في صدر الإسلام ، وهو ما سأشير إليه بعد صفحات .

وكذلك قد يكون من المفيد أن نشير إلى ما ذكره المطران غريغوريوس بولس بهنام ، مطران الموصل وتوابعها في قوله^(٣) : « كما أن الشعراء السريان في المئة التاسعة (القرن الثالث الهجري) استمدوا فكرة القافية من الشعر العربي وأدخلوها في شعرهم الذي كان مجرداً منها على الإطلاق . وأول من تنبه إلى ذلك الراهب أنطون التكريتي الفصيخ - من نوابغ المئة التاسعة ومن أعلام الأمة السريانية في الرّعيّل الأول . ومع معرفته أن القافية في الشعر فكرة عربية لم يرَ غضاضة على لغته التي أعجب بها وكافح في سبيل كرامتها أن تستمدّها منها » .

(١) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية J.R.A.S. (١٨٩٩م) ص : ٥٦ و ٦١ و ٦٢ وقابل ذلك بما ورد في كتاب براون نفسه « التاريخ الأدبي لفارس » ١ : ١٢ - ١٤

Edward G. Browne, A Literary History of Persia.

(٢) A History of Arabian Music to the XIth Century, Luzac & Co. 1929, P.49.

(٣) كتاب « تحقيقات تاريخية لغوية في حقل اللغات السامية » ص ٤ ، ط سنة ١٩٥٣م وليس عليه مكان الطبع ولا اسم الناشر .

ومهما يكن من أمر فليس لأحد من سبيل إلى مناقشة هذا الكلام كله - الذي تضمنه كتاب المرشد - من أول ما ذكرنا منه إلى آخره ، فهو مجموعة ظنون واحتمالات وآراء شخصية . وإنما تُناقش الأدلة والاستنتاجات المرتبطة بمقدمات ممحصّة أو يمكن فحصها وتمحيصها .

و كنت قد ذكرت شيئاً من هذا للصديق المؤلف حين كنا في المدينة المنورة في شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٠٩ هـ (يناير ١٩٨٩ م) فلم يمهّلني حتى أكمل حديثي ، بل بادر إلى القول إنه رجع عن تلك الآراء كلها في أول الجزء الثالث من كتابه . وذهب إلى أكثر من ذلك حين ذكر أنه أصبح يرى أن الإغريق هم الذين تأثروا بالعرب وأخذوا عنهم أشياء ، واستدلّ على ذلك بأسماء الخيل وأعضائها التي ذكرها بعض شعراء الإغريق القدماء ومنهم أوميروس أو هومر ، فهي كلمات عربية الأصل ، وأشار إلى دراسات لبعض المستشرقين في هذا المجال .

وشاع في نفسي كثير من الرضا ، فمن عادة العلماء أن يراجعوا آراءهم : فيكبحوا ما جمع منها ، ويسدّدوا ما طاش ، ويقوموا ما اعوج . وعبد الله الطيب عالم عالم ، وهو حقيق أن يفعل ذلك .

ولكنني حين عدت إلى الجزء الثالث وجدته يقول^(١) : « سبقت القصيدة العربية أطوار من النمو فيما نرى . ويبدو لي أن الشعر قبلها كان يدور أول أمره على موازنة الألفاظ ومقابلة المعاني في تراكيب يخالطها شيء من الإيقاع ، على نحو قريب مما في العبرانية . وليس بأيدينا شيء من أمثلة هذا الضرب . وعسى أن تكون الأمثال القديمة الخالية من السجع

(١) ٧٧٧-٧٧٨ .

قد حُذِيتْ على نماذج منه ، أو لعلّها بعض بقاياها وآثاره . نحو قولهم :

الرأي نائم والهوى يقظان

وقولهم : يداك أو كتا وفوك نفخ »

ثم ينتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثانية فيقول^(١) : « ثم يبدو أن أسلوب الموازنة والمقابلة دخلته ألوان من طلب التقفية من طريقي السجع والازدواج ... ولعل سجع الكهان بعض ما بقي من أمثلة هذا الأسلوب . . . »

أما المرحلة الثالثة فيصفها بقوله^(٢) : « ثم يخيل إليّ أن طور الأسجاع استمر زمناً طويلاً ثم دخله الوزن بفجأة . وربما كان ذلك تحت تأثير أغاني الحيرة وما حولها . وقد بسطت رأيي في هذا المعنى في الجزء الثاني فليرجع إليه . ومما ذكرته هناك أن غناء الحيرة - فارسيّاً كان أو غيره -

ربما سبق له أن تأثر بأوزان الشعر اليوناني . فيكون الوزن العربي ، على هذا القول ، مقتبساً في أصله من جذوة يونانية (!) . وأريد هنا أن أقيد هذا القول بنوع من الاحتراس أراه ضرورياً جداً ، وهو أنني لا أرى الوزن العربي قد كان أخذاً بحثاً واقتباساً صرفاً من أوزان اليونانية ، أو من النماذج التي حُذِيت عليها في الغناء الفارسي القديم أو غيره (!!) ولكنّ الراجح في حدسي أن سماع الغناء المحذوّ على أوزان يونان أو أوزان مقتبسة من أصول يونانية ، وقع في نفوس بعض أذكاء العرب موقعاً جعلهم يخترعون مبادئ البحور اختراعاً < تلقائياً > مفاجئاً . وقلّ إن سماعهم لغناء القيان المحذوّ على أوزان يونان أثارهم وأحدث في

(١) ٣ : ٧٧٨ .

(٢) ٣ : ٧٧٩ .

أنفسهم إلهاً ، فأشرق حقيقة . البحور > عليهم بغتة ، فأخذوا في
مسالكها أيماً أخذ .

ولا شك في أن المؤلف يريد بهذا الكلام أن يقول شيئاً ، ولكن
مناحي الكلام كانت قد سدّت من بين يديه ومن خلفه بهذه السدود
اليونانية والفارسية ، ثم العبرانية ، التي جعلت خطوه يصطدم بها ، فلا
يتمكن من قيد إلا ليقع في قيد . ولا يبدو أنه ترك ما ذهب إليه في الجزء
الثاني من كتابه ، ولا أنه خالف عن آرائه التي أوردها فيه ، حين قال في
الجزء الثالث : « لا أرى الوزن العربي قد كان أخذاً بحثاً واقتباساً
مصرفاً من أوزان اليونانية » ولا حين قال : « إن سماع الغناء المحذو على
أوزان يونان أو أوزان مقتبسة من أصول يونانية . . . جعلهم يخترعون
مبادئ البحور اختراعاً تلقائياً مفاجئاً . . » فهذا كلام يؤكّد سابقه وإن لم
يكن فيه وضوحه .

وقد يكون من المفيد هنا أيضاً - في معرض حديث المؤلف عن
الحيرة والغناء فيها وتأثر أوزان الشعر العربي بذلك كله - أن أشير إلى ما
ذكره المستشرق الإنجليزي هنري جورج فارمر في كتابه عن تاريخ
الموسيقى العربية من قوله^(١) : « ونقرأ عن نشوء نوع من الموسيقى - قرب
نهاية عصر الخلفاء الراشدين - أكثر فنية يدعى : الغناء المتقن ، ميزته التي
يختص بها هي اتفاق الإيقاع وتمشيّه مع أنغام الغناء ، وهذا الإيقاع منفصل
عن العروض والوزن الشعريين . ومهما يكن السبب في استحداثه فإنه

(١) ص : ٤٩ ، وانظر تعليقنا على كلام فارمر في كتاب : القيان والغناء في العصر الجاهلي :
١١٥-١١٧ ثم ١١٩-١٢١ ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٨٨ م .

يبدو أمراً طبيعياً جداً ، وكذلك يبدو أنه متفرّع من أصول الوزن العروضي . وعلى كل حال فليس من المحتمل أنه مقتبس من الفرس الذين نسب إليهم ابن خرداذبة اختراع الإيقاع إذا سلّمنا برأي من يؤكد أن الفرس لم يعرفوا العروض في ذلك العصر . ونحن نعرف على وجه اليقين أنه بعد نشوء الغناء المتقن بإيقاعاته في الحجاز ، كانت مدينة الحيرة ذات الصبغة الفارسية بفكرها لا تزال تستعمل النوع القديم من الغناء وهو النَّصَب .»

ومع أن أكثر مؤرخي الأدب العربي والفارسي ، القدماء والمحدثين ، يذهبون إلى أن « الإيرانيين القدماء لم تكن لهم أوزان من الشعر ، بل هم مدينون في عروضهم للعروض العربي » فإن المؤلفين والدارسين العرب لا يلبثون أن يستشهدوا بآراء افتراضية لبعض المستشرقين للتشكيك في أسبقية موسيقى الشعر العربي وأصالتها ، من مثل قولهم^(١) « إن بحوث المستشرقين الحديثة أثبتت أن الإيرانيين كانوا يعرفون أنواعاً من الوزن تقترب من أبحر الهزج والرجز والمتقارب . وقد افترض المستشرق الدانماركي كريستنسن A . Christensen - لهذا - وجود تأثير إيراني في العروض العربي عن طريق الحيرة . »

وهذا كلام لا يستقيم على وجه : فكلما « أثبتت » تحتاج إلى أكثر من هذه الإشارة العابرة ، والحديث عن « بحوث المستشرقين الحديثة » تشمل جميع المستشرقين ، وهو غير صحيح لكثرة اختلافهم فيما

(١) انظر : د. يوسف بكار ، في العروض والقافية : ٢٠ - ٢١ والحواشي ، دار المناهل - بيروت - الطبعة الثانية ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م .

بينهم ، ثم إن المستشرق الدانماركي كريستنسن إنما افترض ما ذهب إليه
افتراضاً ، ولم يقدم له الدليل .

(٢)

ومن أجل هذا كله يبدو أن الكتاب الثاني الذي ذكرته في مطلع هذا
الحديث - وهو كتاب « بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف » ^(١) -
جاء في أكثره أشبه ما يكون بالرد على ما ورد من الآراء التي أشرنا إليها
في كتاب « المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها » ، وإن لم يفصح
مؤلفه الدكتور محمد عوني عبد الرؤوف عن هذا الهدف . ولاتم لنا
المقابلة بين الكتابين وما فيهما من آراء المؤلفين إلا بكثرة الاقتباس وطوله من
الكتاب الثاني كما فعلنا بالاقتباس من الكتاب الأول . وقد بدأ المؤلف
كتابه بقوله ^(٢) : « كثرت الأقلام التي تناولت الحديث عن الشعر العربي ،
واختلفت الآراء في نشأته وطبيعته ، وذهب البعض إلى تأثره بغيره من
اللغات السامية أو الهندو أوروبية . ولعل السبب في هذا أن ما وصل إلينا
من شعر عربي قبل الإسلام - أو بمعنى أصح : ما نتداوله منه - نجده تام

(١) يقصد بالكم : طول المقاطع الصوتية وقصرها مرتبة في التفعيلة ، ويعتمد طولها وقصرها
على حركات الحروف وسكونها ، فيما يسمى في علم العروض بالأوتاد والأسباب بأنواعها
المختلفة . ومن مجموعات « التفاعيل » يتكون البحر الشعري في اللغة العربية . أما
« الكيف » فيقصد به طبيعة الشعر المعتمد على وضع « النبرة » أو « الضغط ، Stress or
accent على مقاطع معينة Syllable وعدم وضعها على مقاطع أخرى ، ومن ترتيب وضع
هذه النبرات على المقاطع يتألف البحر الشعري في بعض اللغات ، مثل الإنجليزية . وليس
هنا مجال التفصيل في هذه القضايا ، ولكننا نلاحظ أن تعبير « الكم والكيف » لا يدلان
على المقصود دون شرح مطول .

(٢) التصدير : ط .

البناء ليس فيه ما يوحي بأنه مرّ بمراحل وأطوار حتى وصل إلى هذه المرتبة من الكمال .

ثم يبدأ « المقدمة » بقوله^(١) : « اللغة العربية هي اللغة السامية الوحيدة التي عرفت العروض بهذه الصورة التي وصلت إلينا . فلما نعرف لغة سامية أخرى عرفت العروض بالصورة الكمّية التي وجدنا عروض العربية عليها . ولكن لا يفوتنا أن نذكر أن معرفتنا بمعظم هذه اللغات السامية وصلت إلينا عن طريق النقوش ، ولا نعرف كيفية نطقهم لها تحديداً ، ومن ثمّ لا نستطيع أن نتأكد تماماً من طريقتهم في الغناء أو نظم الشعر . وإن كانت الأبحاث اللغوية الحديثة قد خطت خطوات واسعة في التحقق من ذلك كما سنبين بعد . أما القافية فليس ثمة دليل على وجودها بهذه اللغات بنفس الصورة التي وجدت عليها بالعربية . وهي في اللغة العربية جليّة واضحة منذ أن عُرِف الشعر العربي ، وعرفها الشعراء القدامى . . . إن كل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي مقفّى في صورته الكاملة ، ولا نعرف شيئاً عن المحاولات الأولى . وإن عدم وجود نقوش بوسط الجزيرة العربية بلغة أهل هذه المنطقة أو باللغة المشتركة التي نزل بها القرآن . . . جعل الباحثين لا يدرون تماماً إن كان السجع هو حقاً الصورة الأولى التي انطلق منها الشعر العربي . والسجع - فيما نرى - تتواتر فيه الوحدات الصوتية المتشابهة في صورة سريعة أخذت تتباعد شيئاً فشيئاً كلما ارتقى العقل البشري وأصبحت قدرته على الاختزان والاستيعاب أقوى ، وأصبحت ملاحظته لرنين الأصوات وتجانسها - على تباعدها -

(١) ص : ١ - ٢ .

أفضل . ومن ثم وصلنا إلى الرجز والأبيات المصرّعة ، ثم إلى الاكتفاء
بوجود القافية آخر كل بيت . . . » .

والدكتور محمد عوني عبد الرؤوف فيما يبدو لنا من كتابه ،
متخصص في اللغات التي سُميت باللغات السامية^(١) ، ولذلك نراه يعاود
الوقوف عند كل لغة من هذه اللغات وقفة متأنية ، فيكرر الأحكام
السابقة حين يبدأ الفصل الأول من كتابه بقوله^(٢) : « إذا حاولنا تبين حقيقة
الأوزان عند الساميين القدماء وجدنا الصورة تخالف تمام المخالفة ما وصل
إلينا من شعر عربي قبل الإسلام . فالشعر العربي في قلبه لا نظير له في
الآداب الأخرى ، وهو عربي النشأة كما يقول هارتمان^(٣) » .

ثم يتبع هذه اللغات لغةً لغة ، ويستعين بدراساته في ألمانيا على

(١) أصبح نفر من علماء اللغات يتجنبون استعمال هذه التسمية ، ويرون أن العالم شلوتزر
Schlozer (ت ١٧٨٢م) حينما استعملها في نهايات القرن الثامن عشر لم يعتمد على
أدلة علمية ، وإنما اعتمد على ما جاء في التوراة من أسماء أبناء نوح عليه السلام ، وهم :
سام وحام ويافث ، فنسب إلى كل واحد منهم مجموعة من اللغات التي تربطها مشابهة
و علاقات لغوية ، وشاعت تسمية : اللغات السامية ، واللغات الحامية ، وأما المجموعة
الثالثة فقد شاعت تسميتها باللغات الإندو يوروية أو الهندو أوروبية . وأصبح هذا نفر من
العلماء يعتقدون أن اللغة العربية الأولى تمثل « الأم » لهذه المجموعة التي تسمى باللغات
السامية ، ولذلك يفضلون تسميتها بمجموعة اللغات العربية أو العروبية ، وهم يعتمدون في
ذلك على أدلة لغوية وصوتية ليس هنا موضع تفصيلها . (انظر مثلاً كتاب النظرية
السامية مؤامرة استعمارية وصهيونية على العرب ، للدكتور نعيم فرح ، دارحسان
دمشق ١٩٩٣م . وكذلك كتاب بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف ، للدكتور محمد
عوني عبد الرؤوف ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٦م ، ص : ٥) .

(٢) ص : ٩ .

(٣) Martin Hartmann . وانظر عنوان كتابه بالألمانية في ص ٢٦٤ من كتاب الدكتور
عوني ، وهو مطبوع سنة ١٨٩٦م .

أيدي أساتذة ألمان ، وبمعرفة اللغة الألمانية ، فيعرض آراء عدد من هؤلاء العلماء . فيقول عن الشعر الأكدي إنه « ليس شعراً كمياً بل شعر كيفي » يعتمد على النبر^(١) . أما « الوزن في السريانية فنبري أيضاً ، فلا يمكن مقارنة العروض السرياني بالعروض العربي . . . »^(٢) وأما الشعر العبري فقد اختلف الباحثون في تحديد عروضه « وإن كانوا جميعاً لم يذهبوا قط إلى أنه عروض كميّ مثل العروض العربي . . »^(٣) ثم يقول^(٤) : « يرى بيكل Bickell في دراساته عن الوزن في العبرية بالعهد القديم وكذا في السريانية : أن المقاطع المنبورة تتبادل مع المقاطع غير المنبورة ، وهو يرى أن شعر المقطوعات في اليونانية مأخوذ عن السريانية » . وينقل المؤلف عن مقال مترجم إلى الألمانية للدكتور مراد كامل قوله عن الشعر الحبشي^(٥) : « يمكن أن يقال الآن : إن الشعر الأثيوبي مقسم إلى سطور . . . ويبدو أن الغالب على الشعر نبرة الكلمة وأن الوزن يبنى عليها » .

ويقول في نهاية حديثه عن الشعر الحبشي^(٦) : « ففي العربية وحدها

(١) يشرح الدكتور عوني هذا الكلام بقوله : « الشعر الكيفي أو النبري Stressed هو الذي تتأثر المقاطع فيه بالنبر وتخضع له . فالمقطع إما منبور أو غير منبور . والبيت يتكون من عدد معين من المقاطع المنبورة وغير المنبورة ، وقد أشار في ذلك إلى كتاب إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر : ١٤٦ » .

(٢) ص : ١٢ .

(٣) ص : ١٩ .

(٤) ص : ٢٠ .

(٥) ص : ٢٤ .

(٦) ص : ٢٨ .

التفرقة الحادة بين الحركات القصيرة والطويلة ، كما أن عدم احتفاظ العبرية والسريانية بالحركات الإعرابية آخر الكلمة أوجد بها ضغط النبرة على آخر المقطع ، الذي ينشأ عن تقصير الحركات وضمور النهايات فإذا ما أنشئ بها نظم عن طريق تتابع مقاطع معينة بطريقة منتظمة لم يأت إلا نبراً . . . فعروض اللغات السامية الأخرى كان عروضاً نبرياً كما بينا .

ويبدأ حديثه عن شعر اللغة المصرية القديمة بقوله^(١) : « إكمالاً للمنهج ، وحتى لا يكون هناك شبهة في أن الشعر العربي ثقل عروضه الكمي عن غيره من اللغات المجاورة نحاول تبين مدى صلته بالعروض المصري القديم » . وبعد أن يعرض الموضوع ينتهي إلى القول : « ومن هذا نعين أن الشعر العربي لم يتأثر أيضاً بالشعر المصري القديم » .

ثم يتحدث عن الشعر اليوناني حديثاً نلمح فيه الآراء التي يتأثر بها الدكتور عبد الله الطيب والمصادر التي أخذ منها أو المراجع التي أشارت إليها ، أو اتفقت معها ، يقول مؤلف الكتاب^(٢) : « الشعر العربي لم يكن ذا صلة إذاً بالشعر في اللغات السامية الأخرى ، إذ إنه شعر كمي ، والشعر في سائر لغات المجموعة السامية شعر منبور . وقد لاحظ هذا أيضاً رودلف فستفال Rudolf Westphal في كتابه علم العروض العام عند الشعوب الهند أوروبية والشعوب السامية في ظل قواعد علم اللغة المقارن^(٣) ، إذ يرى أن العرب بالرغم من قرابتهم للشعوب

(١) ص : ٢٩ .

(٢) ص : ٣٠ .

(٣) انظر عنوان الكتاب بالألمانية في حاشية ص ٣٠ من كتاب الدكتور محمد عوني
عبد الرؤوف .

السامية الأخرى ، لم يكن في شعرهم أي صلة قرابة داخلية أو خارجية بالعبرانيين القدماء أو الكلدانيين القدماء ، إلا أن فستفال كان يرى أن العرب الإسلاميين تأثروا في شعرهم بالشعر اليوناني القديم ، ويدلل على ذلك بأن الفنون اليونانية الجمالية دخلت إلى الشرق بدخول الهيلينية إليه وكذلك اعتنى خلفاء أردشير (أي الساسانيون) بعض العناية بالفنون الجمالية اليونانية . وعندما تعرف الخلفاء المسلمون الأوائل على الموسيقى والمغنين اليونان ، بالبلاط الفارسي ، في عهد الفرس الجديد ، انتشرت الموسيقى اليونانية التي ظلت منذ الفتح المقدوني حتى آنذاك بالشرق . والدليل على ذلك نظام التدوين الموسيقي لدى العرب فإذا ما كانت النظرية الموسيقية اليونانية قد عرّبت ، فلا ينبغي أن يتعجب المرء ، حين يجد لدى العرب والساسانيين في الشعر أيضاً قواعد العروض اليوناني مستعملة . فرودلف فستفال يرى إذاً أن الشعر العربي تأثر بالعروض اليوناني ، وإن كان ما يأتي به آراءً ظنية لا يمكن أن تنهض دليلاً على ما يقول ، ومن ثم فقد رفضه جورج ياكوب (يعقوب) George Jacob في كتابه Altarabisches Beduinen Leber (المطبوع في برلين سنة ١٨٩٧م) . وفستفال يذهب إلى أن العروض العربي ليس مأخوذاً عن اليونانيين فحسب ، بل إن علم العروض نفسه أخذه العرب عن النحويين اليونانيين أيضاً . ويذهب إلى أن هذا العلم جاء به العرب بعد ترجمة كتاب عروض يوناني يسمى المحتوى Kompendium .

ولا بد من وقفة قصيرة هنا قبل أن نمضي مع مؤلف الكتاب الدكتور

محمد عوني عبد الرؤوف . فالذي يظهر جلياً من هذه المقتبسات المترجمة من كتاب فستفال أنه لم يذهب إلى أن الشعر العربي تأثرت أوزانه في نشأتها بأوزان الشعر اليوناني ، لأنه منذ البداية كان يتحدث عن العرب المسلمين وتأثرهم بالحضارة الهيلينية إما مباشرة وإما عن طريق الفرس . وهذا كله لا علاقة له بالنشأة الأولى لموسيقى الشعر العربي وأوزانه . والواضح من كلام فستفال أنه يشير إلى تأثر الشعر العربي - في تطوره في العصور الإسلامية - بالموسيقى والغناء عند اليونان ، ثم إلى تأثر العرب بعلم العروض اليوناني حين وضعوا علم العروض العربي . ويبدو من سياق الكلام أن الدكتور محمد عوني قد أضاف - في شرحه وتعليقه - ما لم يقله فستفال ، أو ما لم يقله في هذه المقتبسات المترجمة على الأقل . وقد خلط بعض المؤلفين العرب بين نشأة الشعر العربي ووضع علم العروض ، وهما أمران مختلفان ، فأولهما موغل في القدم ، والآخر بحث النشأة وضعه الخليل بن أحمد . ولا يعنينا هنا أن نبحت موضوع علم العروض > وهل هو من ابتكار الخليل وضعه على غير مثال سابق أو أنه ربما تأثر بالهنود ، كما افترض البيروني حين قال^(١) : « إن الخليل كان موثقاً في الاقتضابات ، وإن كان ممكناً أن يكون سمع أن للهند موازين في الأشعار كما ظن به بعض الناس » .

ثم يمضي الدكتور عوني فيقول^(٢) إن فايل Weil^(٣) دفع ما زعمه

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص : ١٠٤ .

(٢) المصدر السابق ص : ٣١ - ٣٣ .

(٣) عنوان كتابه مذكور في آخر الكتاب ص : ٢٦٥ .

فستفال من تأثر علم العروض العربي بالعروض اليوناني « مدلاً على أن من يدرس عروض الخليل يعرف أن العروض العربي لا ينطلق من الشعر العربي فحسب وإنما من الكتابة العربية أيضاً وأنه لا يشبه النظرية اليونانية أو أي عروض يوناني . وقد زعم تكاتش Tkatsch أيضاً مثل فستفال في كتابه^(١) أن العرب قبل محمد ﷺ ، لا بد أن يكونوا قد بلغوا مرتبة عالية من الحياة الذهنية ، ليتمكنوا من التوصل إلى هذه الأوزان العروضية التي نظموا فيها . وهذا أمر لا يمكن تصوّره حين نتعرّف على طريقة معيشتهم ، ومن ثمّ يصعب أن نصدق أن العروض العربي الكمي ، الذي لا مثيل له في أية لغة سامية أخرى ، يمكن أن يتطور عن البيئة المحلية . ولهذا كان يرى أن أبناء الصحراء الأميين لا يمكن أن يكونوا قد اخترعوا هذه الأوزان العروضية ، بل إنهم قد نقلوا معرفتهم الأولى عن بناء الشعر الكمي ، عن إخوتهم السريان ، الذين كانوا وسطاء في نقل المعارف عن اليونانيين المسيحيين ، بالإمبراطورية الرومانية . وينقل قايل هذا الرأي في كتابه ، ويبين أنه زعم نظري محض لا يؤيده أي دعم تاريخي ، إذ إنه لا يستطيع أن يجد أي أثر مباشر يمكن أن يؤثر على الشعر العربي القديم الذي تمكن في منتصف القرن السادس من السيطرة على أبحر العروض المعروفة . كما أن تكاتش ينقصه قبل أي شيء إيجاد الصلة بين البناء الصوتي للغات المختلفة وبحور الشعر المستعملة فيها . وفضلاً عن ذلك فإن النبذة الموسيقية اليونانية القديمة - بتمييزها الحادّ بين القصر والطول - أخذت حدّتها تقلّ شيئاً فشيئاً مع الزمن ، حتى اختفت

(١) عنوان كتابه في ص : ٣١ .

و حلت محلها شدة النبرة بآخر المقطع ، اعتباراً من أوائل القرن الرابع الميلادي . ومن ثم أصبح الشعر اليوناني منذ ذلك الحين شعراً نبرياً
أي أن الشعر اليوناني الذي يمكن أن يكون العرب قد سمعوه من هم اليونانيين أو السريان - كما يقول قايل - كان شعراً نبرياً . ولم يكن الشعر اليوناني القديم حياً في أفواه اليونانيين آنذاك ولم يستعمله في القرون المتأخرة إلا العلماء الذين كانوا في الوقت نفسه شعراء يفرضون الشعر . ولهذا كله فليس من الطبيعي أن أبناء الصحراء الأميين - كما يقول تكاتش - قد نهلوا من هذه الدراسة العلمية واستفادوا منها »

* * *

وحسبنا ما قدمنا ، لنستدل منه على أن هذا الموضوع يكتنفه الغموض ، وأن الباحث فيه لا ييؤ إلا بحفنة من الظنون والتخيلات والافتراضات والاحتمالات . فليس عليه دليل نقلي ولا دليل عقلي . وأن المستشرقين قد تداخلت آراؤهم وتعارضت ، وتناقضوا فيما بينهم تناقضاً جعلهم يتخذون الافتراض الواحد قاعدة لإقامة الدليل على الشيء ونقيضه . فقد افترضوا أن العرب كانوا أبناء الصحراء (هكذا كلهم !) وكانوا جهلاء (!) وأن العرب - كما يرى تكاتش - قبل محمد ﷺ لا بد أن يكونوا قد بلغوا مرتبة عالية من الحياة الذهنية ، ليتمكنوا من التوصل إلى هذه الأوزان العروضية التي نظموا فيها . وهذا أمر لا يمكن تصوره حين نتعرف على طريقة معيشتهم (!) ومن ثم يصعب أن نصدق أن العروض العربي الكمي الذي لا مثل له في أية لغة سامية

أخرى - يمكن أن يتطور عن البيئة المحلية ، ولهذا كان يرى أن أبناء الصحراء الأميين لا يمكن أن يكونوا قد اخترعوا هذه الأوزان العروضية . . . » في حين يردّ قايل على تكاتش هذه الحجة ويرى أن أمةً في مثل هذه الحال من الجهل والأمية ليس من الطبيعي أن تقتبس عروضها من اليونان ! .

والغريب أن بعض علمائنا ، الذين تأثروا بمثل هذه الآراء ، تبثوها ، وبثوها في كتبهم ، ونسبوها إلى أنفسهم ، فراجت عندنا ، دون أن نعرف أنها لم تكن إلا افتراضات أقامها بعض المستشرقين على غير أساس ، وردّ عليها غيرهم من المستشرقين أنفسهم ردّاً كان أيضاً على غير أساس .

* * *

فهل نستطيع بعد هذا أن نذهب إلى أن الشعر العربي في موسيقاه وأوزانه لم يكن مقتبساً من شعر الأمم الأخرى ، وإنما هو أصيل من اختراع العرب أنفسهم ؟ لقد كنا جديرين بأن نقطع بذلك دون تردد ونجيب بالإيجاب ، لولا أن طريقنا كان طريق الاستدلال على وجود الشيء بنفي ما عداه واستبعاده . ولا يثبت وجود الشيء على وجه اليقين إلا بإقامة الدليل على هذا الوجود ، ولا يكفي فيه الاستبعاد لما سواه أو نفيه . وقد يما قالوا : [إن عدم وجود الدليل لا يدلّ على عدم وجود المدلول] . وعسى أن تكشف الصفحات التالية عما يزيد الأمر وضوحاً .

والى أن نصل إلى ذلك ، لا بدّ لنا من أن نتوقف عند كاتب هو من أكثر الكتاب دورانا حول موضوع نشأة الشعر الجاهلي وأصوله الأولى . ولكثرة دورانه يصعب اقتباس قول محدّد من أقواله الممتدة المتناثرة في ثنايا مقدمة كتابه^(١) وثنايا تمهيده ، وبعض فصوله الأولى . ولذلك كان لا بدّ من أن نطيل الاقتباس منه ، لنربط الجمل بعضها ببعض فيستقيم معناها دون الإخلال بشيء منه ، ودون اقتطاع الجمل من مواضعها لتؤدي غير معانيها .

وقد كان حريصاً في مقدّمته على أن يقول عن نفسه « فقد تبينت من مقومات اللغة وتركيبها ، ومن بنية الكلمة وموسيقاها ، ومن أوزان الشعر ومن مضامينه ، ومن صور الاجتماع التي يعكسها ، ما يكشف عن ماضٍ متيق عتيق ، تمتدّ جذوره إلى ما قد يزيد على ألف عام سبقت الإسلام ، ثم لم ي تبين خصائص للشعر لا يوضحها إلا ما عسى أن يقدم بين يديه من دلالات وإشارات تاريخية تلقي الضوء على مفاهيمه ، وتقوي ما قد يبدو من خصائصه ، عند النظر الأول ، دعوى عريضة !! وهنا وجدتني مرة أخرى في حاجة إلى أن أتعرف ذلك الماضي بعد أن تبينت الصلة الوثيقة بينه وبين هذا الشعر ، بل بعد أن تبينت أن هذا الشعر وثيقة تاريخية دبرى لعهد رائع من عهود التاريخ في جزيرة العرب ، وحولها .

(١) الدكتور المحيى محمد البهيتى ، تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى .

ولجأت إلى التاريخ أستنطق صامته ، وأطرق بابه ، فوجدت تجاوباً عجيباً بين الشعر والتاريخ ، وأخذت تلوح على ضوء الدراسة التاريخية المفاهيم الصادقة لذلك الشعر ، وتتضح الخصائص الفنية القديمة له . وكان عليّ أن أتكىء في هذا أيضاً على نفسي ، فلم يكن تقدّم من البحوث في هذا الباب ما يعبد السبيل لمثل هذه الدراسة الفنية المتصلة الأواصر بحياة الأمة التي أنتجت هذا الشعر . وبذلك اتسعت آفاق البحث اتساعاً لم أكن أتصوره عند البدء فيه ، واستغرق التهيؤ لذلك العمل والقيام به أعواماً ^(١) .

أما أنه لجأ إلى التاريخ يستنطق صامته ويطرق بابه ، فمصادقه في الصفحات الأولى من الباب الأول من الكتاب الأول من مؤلفه الذي كسّره على ثلاثة كتب ، لكل كتاب منها أبواب ، ولكل باب فصول . وقد جعل عنوان الباب الأول « الظروف التي أحاطت بحياة شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وتركت أثرها الضخم على الشعر الجاهلي : في موضوعه وصورته وتاريخه » . وعقد الفصل الأول منه على « محاولة الروم غزو الجزيرة العربية من الشمال وأسبابه » . أما الفصل الثاني فعنوانه « محاولة الروم أخذ الجزيرة من الجنوب » . وجعل عنوان الفصل الثالث « آخر وجوه الصراع » . أما الباب الثاني فكان عنوانه « أثر هذه الأحداث في تاريخ الشعر » . وقد جاء هذا الباب الثاني كله في ثلاث صفحات دون تقسيمه فصولاً .

(١) المصدر السابق ، ص : ٤١ .

ونعود إلى حيث ابتدأ المؤلف . . . إلى التمهيد الذي جعل له عنواناً فرعياً هو « الشعر العربي أقدم مما يُظنّ » نقل فيه كلام الجاحظ عن أنّ العرب كانت « تحتال في تخليدها (أي تخليد مآثرها ومناقبها) بأنّ يعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها . . . » وأستنتج من ذلك أنّ « تخليد الأثر عند كل أمة غاية فطرية من غاياتها الأولى ، تكاد تلازمها من باكورة تنبها ومستهلّ تاريخها ، كما هو معروف مشاهد !! فإذا صحت دعوى الجاحظ فالشعر العربي قديم قدم اليقظة العربية لأنه كان من وسيلتها إلى تخليد آثارها . »

ثم يعقّب على ذلك بقوله عن الجاحظ « ومع ذلك فهو يقول : وأما الشعر (ويقصد به العربي) فحديث الميلاد ، صغير السن ، أوّل من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه : امرؤ القيس ، ومهلل بن ربيعة . . . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام . »

ويقول : « فكأن الجاحظ يجعل بدء عمر اليقظة العربية يضطرب بين أوائل القرن الخامس الميلادي وبين منتصفه . وهو رأي لا يقوم لما تدلّ عليه جميع الكشوف التاريخية في بلاد العرب ، فمدنيّة العرب أقدم من ذلك بكثير ، وحضاراتهم في الجنوب والشمال ، وفي شرق الجزيرة وغربها ، ودولهم ، أعرق من ذلك بكثير . . . »

ثم يمضي على هذا النسق في الحديث عن « المدنيات العربية » و « اليقظة العربية » .

وكل ذلك لا علاقة له بكلام الجاحظ الذي قصد بالشعر العربي هذا الشعر الذي قيل باللغة العربية في صورتها الأخيرة التي قيل بها الشعر الجاهلي الذي نعرفه . ولم ينكر الجاحظ وجود « مدنيات عربية » ولا « يقظة عربية » ولا تاريخاً عربياً قديماً . كذلك لم ينكر الجاحظ وجود شعر قديم لهؤلاء العرب أقدم من هذا الشعر الذي وصل إلينا على الصورة التي نعرفها . ولكنه لم يعرض لشيء من هذا لأن ذلك الشعر كان على صور أخرى من اللغة العربية تجاوزتها هذه اللغة في مراحل تطورها ، فلم ينظم بها الشعراء الذين عاشوا قبل الإسلام بمائتي سنة . ومن طبائع الأمور أن يكون لأهل تلك المراحل السابقة من العرب شعر في كل مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية ، ولكنه شعر آخر سمع به عرب الجاهلية الأخيرة ، وعرفوا عنه ، واتصلوا ببعضه .

الفصل الثالث

بين الأسطورة والحقيقة : النقوش

وربما كان في ذلك تفسير هذا الشعر الذي نقلته كتب تراثنا عن العرب القدماء ، وذكرت أن العرب بعد الإسلام رأوه أو وجدوه مكتوباً أو منقوشاً ، ثم نقلوه إلينا مترجماً باللغة التي يفهمونها ونفهمها ، لأنه كان مكتوباً بلغة لم يكن أهل الجاهلية الأخيرة وأهل القرون الإسلامية الأولى يعرفونها ، ما عدا قلة قليلة من العلماء الذين ترجموها . وكان بعض ذلك الشعر مكتوباً بالخط المسند بلغات أهل اليمن ، وبعضه في الشمال ، الثمودية والنبطية ، وربما بلغات أخرى قبلهما .

ولم يفهم بعضنا حقيقة ما رواه سلفنا من ذلك الشعر القديم ، وتسرعوا في السخرية من الذين أوردوه ، واتهموهم بالخرافة والوضع . على حين كان بعض هؤلاء العلماء واضحين في ذكر أن هذا الذي أوردوه لم ينظمه أصحابه بهذه اللغة العربية التي نفهمها ، وأن هذا الذي نقرأه إنما هو ترجمة إلى هذه اللغة من اللغة الأصلية التي قيل بها ^(١) . ومن أمثلة ذلك : ما ذكره وهب بن منبه في كتاب التيجان الذي رواه أبو محمد عبد الملك بن هشام ، قال ^(٢) : « ... في خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان فتحت مغارة في اليمن فأصابوا فيها جوهراً كثيراً وذهباً وسلاحاً ، ووجدوا فيها مالاً جسيماً ، ووجدوا فيها سارية من

(١) الفضل فيما سأذكره عن موضوع هذه الترجمة ، للأستاذ أحمد راتب النفاخ رحمه الله تعالى وأثابه خير الثواب ، وذلك في حديث عابر كان بيننا .

(٢) ص : ٦٤ . وانظر كذلك : ابن سعيد الأندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ١ : ١٠٢ .

رخام قائمة ، ختم رأسها بالرصاص . فأُعلِمَ بذلك سليمان بن عبد الملك ، فأمر بقلع ذلك الرصاص ، فأصابوا في السارية شيخاً واقفاً وعلى رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالحميرية :

أنا المعافر بن يعفر بن مضر^١ نسبي إلى ذي يمن مقرر^٢

وهذه ترجمة بين الشعر (الرجز) والسجع .

.....

والمعافر هو النعمان بن يعفر بن سَكْسُك بن وائل بن حمير^(١) . وكان يعيش - على ما قال وهب بن منبه - في زمن نُفَيْلَة بن مَضَاض الجرهمي على عهد قي دار بن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام^(٢) . وربما كان ذلك في نحو المئة الثامنة عشرة قبل الميلاد .

ولست أدري أين الخرافة في القصة ، وأين الوضع في الشعر ، في كل ما تقدم ؟ فهل من الخرافة في شيء لو قيل إن مغارة في مصر - في خلافة سليمان - فتحت فوجد فيها جوهر كثير وذهب وسلاح ومال ، ووجدت فيها مومياء في صندوق من رخام ختم رأسها بالرصاص ، فحين قلع ذلك الرصاص أصيب في المومياء أو في الصندوق شيخ على رأسه لوح من ذهب ؟ وكان ذلك كله قبل نحو ثمانمئة وثلاثة آلاف سنة ، أي في المئة الثامنة عشرة قبل الميلاد ؟ وهل يكون الشعر موضوعاً إذا قيل : إنه عثر في ذلك اللوح على شعر مكتوب بالهيوغلفية ، هذه ترجمته . . . ثم ذكرت الترجمة - إلى شعر أو سجع - باللغة العربية الفصيحة ؟

(١) المصدر السابق : ٦٣ .

(٢) وهب بن منبه ، التيجان : ٦٣ .

وقد سبق ابنُ خلدون إلى الحديث عن تكذيب الناس لابن بطوطة . . . عاد إلى المغرب من رحلته في المشرق ، وأخذ يحدث عما رأى من العجائب ، وخاصة في الهند ، ويأتي من الأحوال بما يستغربه الناس . فتناجى الناس بتكذيبه . قال ابن خلدون^(١) : « لا تُكرنَّ ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله ، فتضيقَ حوصلتك عن انقطة الممكنات ، فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار ، وليس ذلك من الصواب ، فإن أحوال الجود وال عمران متفاوتة ، ومن أدرك منها رتبة سُفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها . . » وبعد أن تحدّث عن ابن بطوطة وقصصه ، قال : « ولهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عن قصد الإغراب . . . فليرجع الإنسان إلى أصوله ، وليكن هيمناً على نفسه ، ومميّزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ، ومستقيم فطرته . فما دخل في نطاق الإمكان قبله ، وما خرج عنه رفضه ، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق فإن نطاقه أوسع شيء ، فلا يفرض حداً بين الواقعات ، وإنما مرادنا الإمكان بحسب المادة التي للشيء ، فإننا إذا نظرنا أصل الشيء و جنسه وصنفه ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم من نسبة ذلك على أحواله ، وحكمنا بالامتناع على ما خرج من نطاقه . . . »

وهذا الذي ذكرناه عن المومياة المصرية والكتابة الهيروغليفية ، شيء وُجد كثير مثله ، ورأيناه رأي العين ، ولمسناه لمس اليد ، وهو حقيقة

(١) المقدمة : ٣٢٥ - ٣٢٧ ، منشورات دار الكتاب اللبناني سنة ١٩٥٦ م .

تاريخية ، عاشت خلال آلاف السنين حتى وصلت إلينا . فلم لا يكون الأمر نفسه في اليمن ؟ ومع ذلك فقد زعم الليث بن سعد « أن الشعر منحول ، وذلك فعلُ بني أمية ينتصرون بهم لمضر »^(١) وما ذلك إلا لأن البيت الأول فيه : أن يعفراً هو ابن مضر .

وروى ابن هشام ، عن زياد بن عبد الملك البكائي ، عن محمد بن إسحاق عن عبيد بن شريّة الجرهمي ، عن شيخ من أهل اليمن بصنعاء عام الردّة - وكان معمرًا عالمًا بملوك حمير وأمورها - قصصاً عن كهوف في جبال في اليمن وعمّان والبحرين وجد على أبوابها مرة « نقش بالحميري » ومرة « بالخط الحميري » ومرة « نقش بالقلم الحميري »^(٢) . وقد قرأها رجل يسمّى الهميسع كان باليمن من « عاد بن قحطان » ، وهو عاد الأصغر ، وأما عاد الأكبر فلم يبق منهم أحد ، قال الله تعالى ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾^(٣) . فالشعر الذي ورد في الكتاب إنما هو ترجمة الهميسع من الحميرية إلى العربية التي كانت معروفة قبيل الإسلام واستمرت إلى يومنا هذا . والقصص متصلة الإسناد رواها عن الهميسع شيخ من أهل اليمن عام الردّة وكان معمرًا ، ورواها عن هذا الشيخ عبيد بن شريّة الجرهمي ، وعنه محمد بن إسحاق ، وعنه البكائي ، وعنه أبو محمد عبد الملك بن هشام ، وابن إسحاق هو صاحب السيرة النبوية التي هذبها وصحّحها ابن هشام .

(١) وهب بن منبه ، التيجان : ٦٤ .

(٢) المصدر السابق : ٦٦ - ٦٧ . وانظر نشوة الطرب ١ : ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) الحاقة : ٨ .

ثم ترد في الكتاب قصص متعددة من هذا القبيل عن عمود « من جزع أخضر وفيه مكتوب بالمسند على باب مغارة : هذا قبر قضاة بن مالك بن حمير . . . »^(١) ورأوا في تلك المغارة « شيخاً جالساً على سرير من ذهب أجمل من رأوا وأعظمهم جسماً ، وعليه ثوب منسوج من ذهب ، وعلى رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه بالمسند : أنا قضاة . . . وتحتة مكتوب »^(٢) (ثم يورد شعراً بالعربية) .

وشبيه بهذا ما ورد في كتاب « تاريخ ملوك العرب الأوليّة » المنسوب إلى الأصمعي من قوله^(٣) : « . . . إن ثور بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان خرج إلى الأحقاف ، وملكها ، وأخذ الإتاوة من أهلها ، وكتب كتاب ولايته على جبل من جبالها^(٤) . فبلغني أن ذلك الكتاب إلى اليوم بين ظاهر ، يقرأه من يحسن كتابة الأوائل » .

فذلك كله إذن مكتوب بلغة أخرى غير اللغة التي أصبحت عليها اللغة العربية في مرحلتها الأخيرة ، وكان يقرأها من يحسن كتابة الأوائل . وقد عثر الناس في أزمان مختلفة على آثار من تلك اللغة أو اللغات المتعددة المتوالية من لغات العرب في تاريخهم الطويل ، وكان في كل عصر رجال يعرفون تلك اللغات العربية فيترجمونها إلى اللغة العربية الحديثة التي عرفتها الجاهلية الأخيرة .

(١) التيجان : ١٤٦ .

(٢) عبد الملك بن قريش الأصمعي ، تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦٤ ، تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين ، منشورات المكتبة العلمية ، بغداد ١٩٥٩ م .

(٣) أضاف محقق الكتاب قبل « جبل من جبالها » كلمة « كل » وقال إنها « زيادة يقتضيها السياق » وليست كذلك .

وذكر ياقوت^(١) أن هند بنت الحارث (ت ٥٢٨ م) بن عمرو بن حُجر آكل المرار الكندي بنت ديراً بالحيرة عرف باسم دير هند الكبرى « وكان في صدره مكتوب : بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو ابن حُجر ، الملكة بنت الأملاك ، وأمّ الملك عمرو بن المنذر ، أمة المسيح ، وأمّ عبده ، وبنت عبده ، في مُلْكِ مُلْكِ الأملاك خسرو أنوشروان ، في زمن مار أفريم الأسقف . فالإله الذي بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها ، و يترحم عليها وعلى ولدها ، ويقبل بها ويقومها إلى إقامة الحق ، ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر » .

ولولا أن المستشرقين قد رجعوا إلى هذا النقش ، واستفادوا منه في دراساتهم ، ونقلوه في كتبهم^(٢) ، لذهب المشككون في تراثنا إلى أن هذا ما هو إلا من الأساطير التي حُشيت بها كتبنا .

ولا يجوز أن يفهم من كلامنا هذا ، أننا نذهب إلى قبول كل ما ورد في كتاب التيجان ، أو الإكليل ، أو ما رواه الأصمعي في كتابه عن تاريخ ملوك العرب الأولية . فذاك شيء لا سبيل إلى قبوله كله والقطع بصحته ، إذ إن في هذه الكتب وأشباهاها ، ما يدخل في باب التراث الشعبي ، الذي تناقلته الأجيال ، حتى أصبح يؤلف جزءاً من ثقافة الأمة ومعارفها وذاكرتها التاريخية . وحين تنتقل مثل هذه المعارف من جيل إلى جيل ، ويتباعد الزمن بين الأجيال ، لا بد أن يختلط

(١) معجم البلدان « دير هند الكبرى » .

(٢) Rothstein, G.D, e Dynastie der Lahmiden in al-Hira, Berlin 1899, P.23 note 2.

وكذلك كتاب ملوك كندة ص : ٨٤ .

• منها الصحيح وغير الصحيح ، والحقيقة والأسطورة . وقد أشار الأصمعي إلى شيء من ذلك ، حين اعتذر عن تقصيره في جمع أخبار ماوك العرب البائدة الأولية « لانقطاع أخبارهم ، ومحو آثارهم » ، وأشار إلى عمله بقوله : « فأتعبت ركبي يجوب القبائل (؟) » ، • • • • • مستقصياً بها رواية الأخبار ، وحفظة تواريخ ما مضى من الأعصار ، واستقصيت كل من رافقته من النسابين ، وتلقيت ما روته لي الشيوخ المعمرة عن الأجداد السالفين ، إلى أن جمعت منه هذا المدرك القليل ^(١) .

فليس إذن كل ما ورد من أخبار القوم هو من الحقائق التاريخية ، وإن كان من المعارف الثقافية والتراث الشعبي . وكل ذلك يحتاج إلى أن يعيد النظر في تراثنا ، ونقرأه قراءة جديدة لنعرف من تاريخنا وأدبنا . أنكرنا .

(٢)

وما تقدم واضح الدلالة إذن على أن القدماء من علمائنا عرفوا أن المشعر العربي ماضياً طويلاً ، سبق هذا الشعر الذي قيل قبل الإسلام بمئتي عام . وأشاروا إليه إشارات واضحة مباشرة ، ولم يحتاجوا إلى التطواف الطويل حوله ، وسلوك طريق « التاريخ » و « المدنيات » و « اليقظة

(١) الأصمعي ، تاريخ العرب قبل الإسلام : ٣ . والكتاب لا يزال بحاجة إلى تحقيق صحة نسبه إلى الأصمعي ، كما تحتاج نسخه إلى تحقيق نسبة كتابتها إلى ابن السكيت .

العربية » ثم الوصول عن طريق الاستنتاج إلى وجود شعر عربي قديم . فإن من الطبيعي أن يكون لكل أمة شعر في كل مرحلة من مراحل حياتها ، تختلف لغته باختلاف تطور هذه اللغة . وهذا أمر نعرف عنه في أمم عاشت في مراحل تالية في أوربا والجزر البريطانية ، مثلاً ، فلغة شعرها الحديث خلال القرون الأربعة الأخيرة ، تختلف عن لغة شعرها الذي قيل قبل ذلك ، ولا يكاد أحد من أبناء تلك الأمم يعرف تلك اللغة ولا شعرها ، إلا نفر قليل من العلماء . هذه حال الإنجليز مثلاً منذ تشوسر وبعد شكسبير وذلك الشعر الذي قيل قبلهما .

و حين قال الجاحظ عن الشعر العربي إنه « حديث الميلاد ، صغير السن . . . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام » . فإن هذا التحديد يعود بنا إلى مطالع القرن الخامس . وهو تاريخ قريب جداً من التاريخ الذي نستنتجه من النقوش عن نشأة اللغة العربية الحديثة ، لا يفصل بين التاريخين إلا ما يزيد قليلاً على نصف قرن .

ذلك أني كنت قد بحثت في كتابي « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية » بعض النقوش العربية النبطية ، التي اكتشفها المنقبون من المستشرقين في بلاد الشام^(١) . وقصرتُ همِّي هناك على الجانب الخطي المتصل بصور الحروف وأشكالها - من غير التعرض لدراسة الجوانب اللغوية - لأن ذلك كان من جملة مداخلتي إلى إثبات معرفة العرب في

(١) ص : ٢٤ - ٣٢ . من الطبعة السابعة .

الجاهلية بالكتابة وتقييدهم لبعض شعرهم ، وانتقال هذه الكتابات الشعرية إلى عصور التدوين في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، فكانت من المصادر التي اعتمد عليها - بعد ذلك - علماء العربية والشعر ، بالإضافة إلى الرواية الشفهية المتسلسلة ، من راوية إلى آخر خلال قرنين . وقد وصلت ، حينئذ ، إلى أن النقوش المؤرخة قبل القرن الثالث الميلادي ، لم يكن فيها من الكلمات الكاملة ، ما يتفق صورة حروفها في الخط مع الخط العربي الإسلامي ، وإن كان فيها من الحروف المفردة المنفصلة ، ما يتفق مع حروف الخط العربي ، أو ما يصح أن يكون أصلاً تطوّرت عنه هذه الحروف ، لقرب الشبه بينهما . ورأيت كذلك ، أن النقوش النبطية الخمسة ، المؤرخة في القرن الثالث الميلادي ، لا تضمّ إلا كلمات قليلة ، تشبه صورة حروفها في الخط ، صورة كلمات اللغة العربية التي عرفناها في الجاهلية الأخيرة ، تتراوح بين كلمة وثلاث كلمات في النقش الواحد . ولذلك عدت تلك النقوش غير متصلة بموضوعي في ذلك الكتاب ، إلا من حيث هي تمهيد لنقوش المرحلتين التاليتين ، وربما كانت أصلاً لهما .

أما القرن الرابع الميلادي فلم يُعثر فيه إلا على نقش واحد ، وهو نقش مشهور أشار إليه كثير من الباحثين ، وقد وجد في مدفن امرئ القيس بن عمرو ملك العرب - في النّمارة ، وهي من أعمال حوران - وتاريخه سنة ٢٢٣ من سقوط سلع ، أي سنة ٣٢٨ للميلاد . ولهذا النقش قيمة كبيرة في بحث تاريخ الكتابة العربية ، لأن كثيراً من كلماته ، بل ربما كانت جميع كلماته ، ذات صورة تشبه شهاً كبيراً ،

صورة الخط العربي الإسلامي . وقد أثبت في كتابي صورة النقش^(١) ،
وأثبت نصّه بحروف المطبعة ، وانتهيت إلى القول^(٢) : « فهذا نقش عربي
بين العربية ، عربي في أكثر لغته ، عربي في صورة خطّه » .

وقد أوردتُ نقشين مؤرخين في القرن السادس الميلادي ،
اكتُشِف أولهما في خربة زبد - بين قنسرين والفرات - وتاريخه
سنة ٥١١ للميلاد ، وعليه ثلاث كتابات : باليونانية والسريانية
والعربية . وخطّه. العربي قريب الشبه بالخط الكوفي الإسلامي .
واكتُشِف ثانيهما فوق باب كنيسة بحرّان اللّجا ، في المنطقة الشمالية من
جبل الدروز . وتاريخه سنة ٤٦٣ من سقوط سلع أي سنة ٥٦٨ للميلاد .
وعليه كتابتان باليونانية والعربية . وكلمات هذين النقيشين عربية الخط
عربية اللغة .

وكل ما تقدّم ، واضح الدلالة ، على أنّ اللغة العربية في مرحلتها
الحديثة ، التي عرفناها في آخر الجاهلية وصدر الإسلام ، إنما بدأت
تكوّن في القرن الثالث الميلادي ، وربما قبله بقليل . لأن النقوش
المكتشفة - حتى الآن - قبل القرن الثالث ، تكاد تخلو من الكلمات
العربية في خطها وفي لغتها ، كما عرفناها في العصور التالية ، وأن نقوش
القرن الثالث ، هي التي أخذت تتضمن بعض الكلمات العربية القليلة ،
ولكننا لا نكاد نصل إلى القرن الرابع ، حتى نجد نقشاً كلماته
كلها - أو أكثرها - عربية الخط واللغة .

(١) نقش رقم (٦) ص : ٢٨ .

(٢) ص : ٢٩ .

فإذا كان ذلك صحيحاً ، فإن من الطبيعي أن لا يبدأ الشعراء نظم شعرهم بلغة بدأت في التكوّن في القرن الثالث الميلادي ، إلا بعد زمن داف قد يمتدّ قرناً وبعض قرن . وكل ذلك ينقلنا إلى منتصف القرن الرابع الميلادي ، وربما أواخره ، وهو تاريخ يكاد يقترب من التاريخ الذي أرجع إليه الجاحظ نشأة الشعر العربي .

وعلى اتضاح هذه الصورة ، وتسلسل أجزائها وترباطها ، فلا بدّ من الاحتياط في مثل هذه الدراسات التي تتصل بنشأة الأشياء وأصلها . وأجد من الواجب أن أنقل هنا ما كنت كتبه في « مصادر الشعر الجاهلي » في أعقاب الحديث السابق عن الخط العربي ، وهو قولي^(١) : « ولكن لا بدّ لنا من أن نعرف ، اعترافاً واضحاً لا لبس فيه ، أن كل دراسة لموضوع الكتابة في العصر الجاهلي ستبقى دراسةً مبتورة ناقصة ما دامت رمال الجزيرة العربية تضنّ بهذه الكنوز ، التي ترقد في بطونها ، عن أن تجلوها لأبصار الدارسين ، حتى يسائلوها أخبار هؤلاء الأسلاف الذين شاء لهم جمود التاريخ أن يوصموا بالجهل والبدائية . ولا بدّ لنا من أن نقرّر كذلك أن في هذه النصوص التي بين أيدينا - على جليل قدرها وعظيم نفعها المدارس - ثلاث نقائص :

الأولى : قلة عددها ، قلة تلجئ الدارس إلى أن يحتاط في حكمه ، ويلقي القول إلقاءً مقيداً بعيداً عن التعميم .

والثانية : تباعد أزمنتها ، وانفصال أوائلها عن أواخرها ، لوجود فجوات زمنية عريضة . فقد أغفلنا ذكر قرن كامل بسنيه المئة ، هو

(١) ص : ٣١ - ٣٢ .

القرن الخامس الميلادي ، لأننا لم نجد نقشاً عربياً يرجع تاريخه إلى هذا القرن . وكذلك لم نعثر في القرن الرابع ، إلا على نقش واحد يرجع إلى ثلثه الأول ، وأما ثلثاه الأخيران فخاليان أصمان . ولم يُعثر في القرن السادس إلا على نقشين : أولهما في سنواته الأولى (سنة ٥١١ م) ، والآخر بعد منتصفه (سنة ٥٦٨ م) ، وما بينهما نصف قرن صامت مُصمت . ومن هنا كان لا بدّ للدارس الذي يريد تتبع البحث من أن يملأ هذه الفجوات بالاستنتاج والاستنباط .

وأما النقيصة الثالثة - وهي أخطرها في نظرنا - فهي أن هذه النقوش كلها قد اكتشفت في المنطقة الشمالية من بلاد العرب ، التي تمتد من العُلا ومدائن صالح إلى شمال بلاد حوران ، وأما مُوسَط بلاد العرب وصميمها : الحجاز ونجد ، فلم يُعثر - حتى الآن - على شيء من النقوش الجاهلية فيها . فإذا كانت هذه النقوش بكلماتها الفصيحة ، وخطها العربي ، قد اكتشفت في منطقة كانت مسرحاً لآثار ورواسب من الثمودية والآرامية والنبطية لغة وخطاً ، فكيف تكون هذه النقوش التي قد تكتشف في الحجاز ونجد ؟ وإذا كانت اللغة الفصيحة والقلم العربي قد نُقِشَا في تلك المنطقة منذ أوائل القرن الرابع الميلادي - بل ربما قبله - فإلى أيّ عهد ترجع بنا نقوش الحجاز ونجد ؟ ^(١) .

(١) نشرتُ محتوى الصفحات العشر السابقة في مجلة « الأكاديمية » العدد 6 ، جمادى الأولى 1410 هـ = ديسمبر 1989 م ورأيتُ إدراجها هنا لتسلسل الموضوع .

الفصل الرابع

آراء القدماء

ولقد كان في كل ما تقدّم غناءً ومقنع ، لو أنّ القدماء اتفقوا على
قولة واحدة ، والتقوا مع الجاحظ على ما ذهب إليه ، أو لو أنّ الجاحظ
نفسه لم يذهب مذهباً آخر . ولكنهم اختلفوا اختلافاً يستدعي تمام
البحث أن نشير إليه .

فللجاحظ نصّ آخر أغفله مَنْ كتب في هذا الموضوع مِنْ قبل ،
وهو متصل بنصّه السابق اتصالاً وثيقاً ، ويدلّ على أن مردّ الأمر عنده
إلى التقريب والتقدير الظني وليس إلى التحديد والقطع اليقيني ، قال
الجاحظ^(١) : « وقد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدارٍ من الدهر ، أطول مما
بيننا اليوم وبين أول الإسلام . . . » .

فإذا كان الجاحظ قد كتب كتابه « الحيوان » الذي أورد فيه هذا
الحكم في نحو سنة ٢٣٠ هـ فإن معنى ذلك أن المقدار من الدهر الذي
قدّره الجاحظ لحياة الشعر في الجاهلية لا يقل عن خمسين ومئتي سنة ،
وقد يصل إلى ما يزيد قليلاً على ثلاثمئة سنة ، لأنه قال : « أطول مما
بيننا اليوم وبين أول الإسلام . » وأول الإسلام هو المبعث نفسه وليس
الهجرة . ونلاحظ هنا أن الجاحظ في هذا النص حدّد الزمن بالمقدار الأقل
حين قال : « في مقدار من الدهر أطول . . . » على حين حدّد هذا الزمن
في نصّه السابق بالمقدار الأكثر حين قال : « فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له

(١) الحيوان ٦ : ٢٧٧ .

إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومئة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار
فمئتي عام » .

وقد جاء الله تعالى بالإسلام في عام ٦١٠ م ، فإذا رجعنا بالزمن نحو
ثلاثمئة سنة - وفق نصّ الجاحظ في الحيوان - وصلنا إلى مطالع القرن
الرابع الميلادي ، وهو ما يكاد يتفق مع تاريخ نقش النمارة سنة ٣٢٨ م .
والفرق في الزمن بين قولي الجاحظ هو من خمسين سنة إلى مئة سنة .
والسبب في ذلك أنه في نصّه الأول^(١) لم يشر إلى مبدأ قول الشعر وإنما
أشار إلى « أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه » في حين رجع في نصّه
الثاني^(٢) إلى أبعد من ذلك قليلاً حين أشار إلى أنه « قد قيل الشعر قبل
الإسلام في مقدار من الدهر . . . » . فالجاحظ يرى أن قول الشعر .
كله قبل الإسلام استغرق نحو ثلاثمئة سنة ، وذلك يعود بنا - كما قدّمنا -
إلى مطلع القرن الرابع الميلادي . و « قول الشعر » يشمل مبدأه وما قيل
من أبيات قليلة العدد تقف عند « البيتين والثلاثة » . أما « تقصيد
القصيدة » و « تطويلها » و « نهج سبيل الشعر » و « تسهيل الطريق
إليه » فذلك كله يعود - في رأي الجاحظ وغيره - إلى ما لا يزيد
على مئة سنة وخمسين أو ، على أكثر تقدير ، إلى مئتي سنة ، أي إلى
مطلع القرن الخامس الميلادي .

ولكن الأصمعي يذهب إلى أبعد من ذلك كله حين يقول^(٣) : « أول

(١) الحيوان ١ : ٧٤ .

(٢) الحيوان ٦ : ٢٧٧ .

(٣) مجالس ثعلب ٢ : ٤٧٩ - ٤٨٠ ، وانظر : الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم
للدكتور نجيب محمد البهيتي : ٤٣٠ - ٤٣٢ ، ففيه شرح وتعليق على كلام الأصمعي .

مَنْ تَرَوِي لَهُ كَلِمَةً تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ : مهلهل ، ثم ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضَمْرَة - رجل من بني كنانة والأضبط بن قريع . . . قال : وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربع مئة سنة . قال : وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير » .

وهذا كلام لا يستقيم في بعض أجزائه ، فالمعروف أن مهلهلاً هو خال امرئ القيس ، فكيف يكون امرؤ القيس بعده بكثير ؟ وقد جعل الأصمعي مهلهلاً أقدم الأربعة ، حين جعل مَنْ بَعْدَهُ معطوفين عليه عطف تعاقب وتراخ . ولكن الذي يعنينا من هذا النص أمر واحد نقف عنده هنا ، وأمور نعود إليها في الفصل التالي . أما الأمر الواحد الذي نقف عنده هنا ، فهو هذا الاختلاف في الزمن بين تقدير الأصمعي وتقدير الجاحظ ، وهو اختلاف لا يتجاوز الظاهر ولا يكاد ينتهي إلى شيء ذي بال في جوهره وحقيقته ، فلم يكن بين أيدي هذين العالمين مقياس يقيسان به الزمن ، ولم يكن التاريخ الجاهلي محسوباً أو مضبوطاً بالسنوات فيما وصلنا من كتب القوم ، وإنما لجأ هذان العالمان إلى التقدير والتقريب . وهو أمر لا يُخِلُّ بالنتائج التي وصلنا إليها من خلال النقوش التي أوردناها والتي جعلت بدء تكون اللغة العربية الحديثة في أوائل القرن الرابع الميلادي ، أي قبل الإسلام بنحو ثلاث مئة سنة !! ويبدو من كل ما تقدم ، أن في كلام الأصمعي ، شيئاً من الاضطراب ، وشيئاً من التجاوز والتسامح في تقدير الزمن ، وربما كان مرد ذلك إلى عدم الدقة في الرواية عن الأصمعي ، أو الخلل في نسخ كتاب « مجالس ثعلب » الذي أورد رواية الأصمعي . ولو أنه لم يقل : « أول من تروى له كلمة

تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر » وقال بدلاً منها شبيهاً بما قاله الجاحظ من أنه « قد قيل الشعر قبل الإسلام في مقدارٍ من الدهر » ثم ذكر السنوات الأربعمئة دون ذكر مهلهل في البدء ، لقبلاً قوله على أنه يريد به بدء الشعر الجاهلي « بيتين أو ثلاثة » !! .

(٢)

وهكذا نرى بين أيدينا نصوصاً تعود بنشأة الشعر العربي ، إلى ما بين المئة الرابعة والمئة الثالثة قبل الإسلام ، وتعود بتقصيد القصيدة أو تطويلها ، بحيث تبلغ ثلاثين ، بيتاً إلى ما بين خمسين ومئة عام ، ومئتي عام قبل الإسلام .

ويبقى السؤال الذي يوحى به عنوان هذه الدراسة قائماً : كيف نشأ الشعر العربي ؟ فإذا لم يكن هذا الشعر ، في موسيقاه وأوزانه ، مقتبساً من شعر أمم أخرى ، وكان أصيلاً من اختراع العرب أنفسهم ، وإذا كان حديث النشأة لا يتجاوز ثلاثمئة عام قبل الإسلام (أو أربعمئة على أبعد تقدير) ، ويمتدّ إلى - المئة الرابعة بعد الميلاد (أو الثالثة على أبعد تقدير) - فهل نستطيع تصوّر الجوّ الذي نشأ فيه هذا الشعر ، والأحوال التي أحاطت بهذه النشأة ، والنماذج الأولى التي تدرّج منها ؟ والجواب أن ذلك ممكن على سبيل الاستنتاج والاحتمال والتقريب ، ولكنه غير ممكن إذا قصد الدارس إلى القطع واليقين والدقّة . وسنحاول في الفقرات التالية توضيح ما نستطيع توضيحه من كل ذلك .

وأول ما نبدأ به حديثنا عن هذا الموضوع المعتاص ، كلام نفيس لعمر ابن شبة في كتابه طبقات الشعراء ، هو قوله^(١) : « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه ، وقد اختلف في ذلك العلماء ، وادّعت القبائل ، كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة ، لأنهم لا يسمون ذلك شعراً . فادّعت اليمانية لامرئ القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلل ، وبكر لعمر بن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبي دؤاد . قال : وزعم بعضهم أن الأفوه الأودي أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيد . قال : وهؤلاء نفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمئة سنة أو نحوها . »

وهذا النص الثمين يعود بنا إلى ما ذكرناه قبل قليل في آخر الفصل السابق من قول الأصمعي والجاحظ وتقديراتها الزمنية . ويضيف عمر بن شبة في هذا النصّ تقديراً ثالثاً أقلّ من سابقه ، ولكن يظلّ الخلاف بينه وبينهما خلافاً يسيراً لا يتجاوز الظاهر ، وخاصة أنه يتحدث عن « أول من قصد القصيد » وليس أول من قال الشعر ، لأنه ذهب إلى أن ذلك مما لا سبيل إلى معرفته حين قال : « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه » . وقد أكّد موقفه حين قال : « ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يسمون ذلك شعراً » . وهذا كله متفق مع قول الأصمعي « أول من تروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر . . » وقول الجاحظ « أول من نهج سبيله (أي سبيل الشعر) وسهل الطريق إليه . . » . فهؤلاء الثلاثة في

(١) السيوطي ، الزهر ٢ : ٤٧٧ .

هذه النصوص - لم يقصدوا إلى أول من قال الشعر : فرداً أو جماعة . ولكنهم تجاوزوا ذلك إلى مرحلة تالية هي مرحلة تطويل الشعر ، أو تقصيد القصيد ، أو نهج سبيل الشعر وتعبيده وتسهيل الطريق إليه . وهي المرحلة التي اختلفوا في تحديد زمنها : فعاد بها بعضهم إلى مئة سنة قبل الإسلام ، وبعضهم إلى مئة وخمسين أو مئتين ، وعاد بها بعضهم إلى أبعد من ذلك فجعلها أربعمئة سنة ، وهو ما وقفنا عنده ، وشككنا في صحة نقله عن الأصمعي ، ورجحنا أنه يريد نشأة الشعر وأوليته ، وهو ما حدّده الجاحظ بثلاثمئة سنة قبل الإسلام .

الفصل الخامس

محاولة لتحديد الزمان

فإذا حاولنا معرفة بُعد بعض الشعراء - الذين ورد ذكرهم في كلام الأصمعي وكلام عمر بن شبة - عن عصر النبوة أو قربهم منه ، ولو على وجه التقريب ، كان علينا أن نلجأ إلى عدد من الوسائل ، ربما كان من بينها تتبع نسب هؤلاء الشعراء حتى نقف - في هذا النسب - عند رجل معروف العصر ، فنعود إلى ذلك الشاعر لنقدر زمنه ، وبذلك نقيس العصر المجهول على العصر المعروف . ولتوضيح الأمر نبداً بشاعر ممن ذكرهم الأصمعي هو : ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ونتبع معه عدداً من الأعلام الذين تسلسلوا من تميم ، ونرقم هذا التسلسل نزولاً من تميم إلى العلم المعروف . وكنا نتمنى لو استطعنا معرفة غير ذؤيب من أبناء كعب ابن عمرو بن تميم لتكون تقديراتنا أقرب زمنياً وأدقّ تقديرًا ، ولكن ابن الكلبي^(١) وابن حزم^(٢) لم يذكرا من أبناء كعب سوى عتيبة بن مرداس الشاعر^(٣) . ولم نستطع تتبع نسب هذا الشاعر بين أبيه وبين

(١) جمهرة النسب ١ : ٣٦٩ - ٣٧١ .

(٢) جمهرة أنساب العرب : ٢١٣ .

(٣) ذكر ابن حزم في جمهرته اسماً آخر هو التلب بن ثعلبة ونسبه إلى كعب بن عمرو بن تميم ، وقد أخطأ ابن حزم ، فالتلب منسوب إلى العنبر بن عمرو بن تميم وابنه كعب بن العنبر ، وليس إلى كعب بن عمرو بن تميم ، (والتصويب من أسد الغابة والإصابة ١ : ١٩٠ وجمهرة النسب لابن الكلبي ١ : ٣٦٦ - ٣٦٨) . وكذلك أورد ابن الكلبي في جمهرته اسم ابن آخر لكعب بن عمرو بن تميم وأخ لذؤيب هو عوف بن كعب بن عمرو بن تميم . وأسماء خمسة أبناء لذؤيب ، واسم ابن لعوف . ولكنه اكتفى بذكر هذه الأسماء ووقف عندها ولم يتسلسل بها إلى من بعدها .

كعب بن عمرو بن تميم ، لأن ابن الكلبي^(١) ، وابن حزم ، وابن قتيبة^(٢) وأبا الفرج^(٣) ، وابن حجر^(٤) ، ذكروه ، وأغفلوا استكمال نسبه ، فلم يبقَ إلا أن نتبع الأمر مع ذرية ابن آخر من أبناء عمرو بن تميم هو أسيد ، ثم نمضي مع أخ لعمرو بن تميم هو زيد مناة بن تميم . وقد اخترنا ثلاثة من أبنائهما لأن هؤلاء الثلاثة هم من أشهر شعراء الجاهلية من بني تميم .

١ - أوس بن حجر بن عتاب بن عبد الله بن عدي بن نمير بن أسيد بن عمرو بن تميم^(٥) . « شاعر تميم في الجاهلية »^(٦) . قال أبو عمرو بن العلاء^(٦) : « كان أوس فحل مضر حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه » . وقد ذهب هافنر (A. Haffner) في مقالته عن أوس في « دائرة المعارف الإسلامية »^(٧) إلى أنه ولد في نحو عام ٥٣٠ م وتوفي في نحو عام ٦٢٠ م .

-
- (١) جمهرة النسب ١ : ٣٦٩-٣٧٠ ، ونسب معد واليمن الكبير ٢ : ٢٣٥ - ٢٣٦ والحاشية .
(٢) الشعر والشعراء : ٢٨٦ - ٢٨٨ .
(٣) الأغاني ٢٢ : ٢٢٧ وقال عنه : « أحد بني كعب بن عمرو بن تميم ، لم يقع إليّ من نسبه غير هذا ... » .
(٤) الإصابة ٥ : ١٠٤ وفي نسبه هنا زيادة ولكنها غير كافية ، قال : عتية بن مرداس بن الحارث بن مدرك الدهماني .
(٥) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ١ : ٩٧ وابن حزم ، الجمهرة : ٢١٠ ، وفي جمهرة النسب لابن الكلبي ١ : ٣٨٠ زاد « ابن خلف » بين « عدي » و « نمير » ، وفي الأغاني ١١ : ٧٠ نقلاً عن الرياشي أنه : أوس بن حجر بن مالك بن حزن بن عقيل بن خلف بن نمير .

(٦) ابن سلام ١ : ٩٧ والشعر والشعراء ١ : ١٣١ والأغاني ١١ : ٧٠ .

(٧) First Encyclopaedia Of Islam, 1:524

والى هذا ذهب أيضاً خير الدين الزركلي في « الأعلام » ،
ولويس شيخوفي « شعراء النصرانية في الجاهلية » ، واكتفى بذكر
سنة وفاته دون مولده . وأكثر هذه التواريخ يبدأ واحد بتقديرها
تقديراً جزافياً - في الغالب - من غير أن يشفع تقديره بذكر
المقاييس التي اعتمد عليها ، ثم يتبعه الآخرون دون تمحيص
واضح . ويبدو لنا أن ما تقدم من تقديرات في مولد أوس ووفاته
هي تقديرات غير دقيقة . فقد تزوج أوس أم زهير بن أبي
سلمى^(١) ، فلما كبر زهير أصبح راوية أوس^(٢) . وقد روى أبو
الفرج^(٣) عن مصادره أن رسول الله ﷺ نظر إلى زهير بن أبي
سلمى وله مئة سنة فقال : « اللهم أعِذْني من شيطانه . فما لك
بيتاً حتى مات » وذكر البغدادي في خزانته^(٤) أن زهيراً توفي قبل
المبعث بسنة . فإذا صح الخبر فإن مولد زهير يكون في نحو عام
٥١٠ م - وربما قبله^(٥) لأننا لا نعرف متى قال رسول الله ﷺ ما قاله
- وتكون وفاته عام ٦٠٩ م أي قبل المبعث بسنة . فإذا كان ذلك
كذلك ، فإن لنا أن نفترض أن أوساً - وهو الابن الثامن لتميم -
بلغ - في العام الذي ولد فيه زهير - مبلغ الرجال ، فإذا قدرنا أنه
كان حينئذ في العشرين من عمره - على الأقل - فيكون مولده

(١) ابن سلام ١ : ٩٨ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٩٧

(٣) الأغاني ١٠ : ٢٩١ .

(٤) ٢ : ٣٣٦ .

(٥) ذكر أبو حاتم السجستاني في « المعمرون والوصايا » : ٨٣ أن زهيراً عاش مئة وعشرين سنة .

نحو عام ٤٩٠ م ، وربما كانت وفاته في منتصف القرن السادس أو بعده بقليل .

وهذان التاريخان بعيدان عن التقديرات السابقة التي جعلت مولده في نحو عام ٥٣٠ م ، ووفاته في عام ٦٢٠ م !!

٢ - عديّ بن زيد بن حمّاد بن زيد بن أيوب بن مجروف بن عامر بن عَصِيَّة بن امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم^(١) . وقد جعل كسرى أنوشروان عديّاً من خاصّته وأتّخذَه ترجماناً بينه وبين العرب . فلما وليَ بعد كسرى ابنه هرمز أقرَّ عديّاً على ذلك ، ورفع منزلته ووجهه رسولاً إلى ملك الروم طيباريوس الثاني Tiberius II في القسطنطينية بهدية^(٢) وقد توجّ طيباريوس الثاني إمبراطوراً عام ٥٧٨ م ، وتوفي عام ٥٨٢ م^(٣) وبين هذين العامين وفد عليه عديّ . ولا يكون المرء من خاصة كسرى وترجماناً بينه وبين العرب ، ثم يوفده ابنه هرمز رسولاً إلى إمبراطور الروم ، إلا وقد بلغ من العمر والتجربة والحكمة مبلغاً يجعله أهلاً لذلك . وعلى هذا ربما كان مولد عديّ في الثلث الثاني من القرن السادس الميلادي وعاش حتى قرب نهايته ، وتوفي في نحو عام ٦٠٤ م^(٤) .

(١) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ١ : ٣٦٠ ، وفيه « حمار » مكان « حمّاد » ، وابن سلام ، طبقات فحول الشعراء : ١٣٧ ، وابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ١٥٣ وفيه « حماز » ، بالزاي ، مكان « حماد » ، وأبو الفرج الأصبهاني ، الأغاني ٢ : ٩٨ . وسقط من نسبه « حماد بن زيد » في ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب : ٢١٤ .

(٢) لويس شيخو ، شعراء النصرانية : ٤٤٤ ، وخير الدين الزركلي ، الأعلام ٤ : ٢٢٠ .

(٣) Encyclopaedia Birt. (٣)

(٤) First Encyclopaedia Of Islam ، وفي الأعلام للزركلي أنه توفي في نحو عام ٥٩٠ م ، وفي شعراء النصرانية أنه توفي في عام ٥٨٧ ، وجعل مولده في نحو سنة ٤٨٠ م (ص : ٤٤١) .

فعدي^٥ - وهو الابن العاشر - ينتهي بنا إلى قرب نهاية القرن السادس الميلادي .

٣ - علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس بن عبدة^(١) بن ربيعة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وهو علقمة الفحل صاحب امرئ القيس بن حجر في قصته المشهورة مع زوجته أم جندب . ولا بد أن يكون علقمة قد بلغ من العمر ومن المكانة الشعرية ما يجعله قادراً على مساجلة امرئ القيس دون أن يستهين به امرؤ القيس أو يجد في مساجلته غضاضة . وقد ورد امرؤ القيس على امبراطور الروم يوستينيانس Justinianus في القسطنطينية يستنجد به على بني أسد قتلة أبيه . وقد تُوجَّح يوستينيانس امبراطوراً عام ٥٢٧ م وتوفي عام ٥٦٥ م وقلد امرأ القيس ولاية فلسطين ، ولكن امرأ القيس توفي في أنقرة في طريق عودته من القسطنطينية . واختلفوا في تاريخ وفاته ، فمنهم من جعلها بين عامي ٥٣٠ م و ٥٤٠ م^(٢) ، ومنهم من جعلها نحو عام ٥٦٥ م^(٣) ، ومنهم من جعلها نحو عام ٥٤٥ م ، ورجح أن ولادته كانت نحو عام ٤٩٧ م^(٤) ، أي قبل المبعث بما يزيد قليلاً على مئة سنة . وذلك يعني أن علقمة ولد في مطلع القرن السادس الميلادي ، ربما قبيل مولد عدي بن زيد ، وقد

(١) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ١ : ٣٣٤ ، وابن حزم ، جمهرة أنساب العرب : ٢٢٢ ولم .
« عبد » مكان « عبدة » .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية ٤ : ٤٠٦ .

(٣) لويس شيخو ، شعراء النصرانية ١ : ٣٥ .

(٤) الأعلام .

امتدّ العمر بعلقمة حتى نهاية القرن وربما مطلع القرن التالي ، فقد أدرك الحارث بن أبي شمر ، وقال فيه شعراً تشفع فيه لأخيه شأس . وحكم الحارث من سنة ٥٢٩م حتى سنة ٥٦٩م وهي سنة وفاته^(١) . فإذا كان علقمة من لدات امرئ القيس ، وكان مولده قريباً من مولده ، فإن الأرجح أن تكون وفاته في منتصف القرن السادس الميلادي أو بعده بقليل^(٢) ، وربما انتهى بنا إلى قرب نهاية القرن السادس ، مثله مثل أوس بن حجر ، وكلاهما الابن الثامن لتميم .

(٢)

ونستطيع أن نمضي مع مثل هذه الأمثلة ، فنضمّ إلى هؤلاء الثلاثة آخرين ، ويظل تقديرنا الزمني كما هو دون أن يختلّ ، فالأبناء الثوامن - من الأجيال التي تسلسلت من تميم - عاشوا في القرن السادس الميلادي ، بعضهم أدرك مطالعه وامتدّ العمر بهم إلى نهايته أو إلى قريب منها . وقد تتداخل الأجيال فيُظلمهم قرن واحد ، فنجد الابن التاسع أيضاً ، وربما الابن العاشر (مثل عدي بن زيد) يعيش في القرن السادس مع الابن الثامن ، وإن تأخر عنه في الميلاد والوفاة . وذلك يجعل كل تقديراتنا ضرباً من الافتراضات التي قد ترقى إلى مرتبة الترجيحات ، ولكنها

(١) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام ١ : ١٧٩ ، وانظر كذلك ص : ١٧٥ ، ١٧٨ و ١٨٢ .
(٢) ذهب الزركلي في الأعلام إلى أن علقمة توفي سنة ٦٠٣ ولا أدري علام اعتمد ، وذهب لويس شيخو في شعراء النصرانية قبل الإسلام : ٥٠٩ إلى أنه توفي نحو سنة ٦٢٥م لقصة أوردها قال عنها الزركلي إنه يشك كثيراً في صحتها .

لا تبلغ ألبتة مرتبة التحديد واليقين ، وتظل موضع اختلاف في الرأي .
ومن هنا فإننا نَعْجَب من أولئك الذين حدّدوا تحديداً دقيقاً سنة مولد بعض هؤلاء الأعلام الجاهليين ، وسنة وفاتهم ، دون أن يذكروا المقياس الذي اعتمدوا عليه في هذا التحديد . ولا يقلل من عَجَبنا أنهم ذكروا قبل السنة كلمة « نحو » ، مثل : دائرة المعارف الإسلامية : الطبعة الإنجليزية والنسخة العربية ، ومثل : كتاب شعراء النصرانية ، ومثل : كتاب الأعلام . فإن كان في تلك المراجع تحديد دقيق للسنة نفسها ، فإن أقصى ما نطمح إليه في هذه الدراسة أن نقدّر عصر هؤلاء الشعراء بأجزاء القرن كأن نقول : في النصف الأول منه أو في النصف الآخر أو ما يشبه ذلك من تقديرات تقريبية واسعة .

ونخطو خطوة أخرى في تتبع نفر ممن عاشوا في الإسلام لنحاول تقدير أعمار الجيل الواحد من هذه الأجيال المتعاقبة ، فنعود - بعد ذلك - إلى الحالات الثلاث السابقة فنطبّق عليها هذا التقدير .

فمالك بن الربيع هو : مالك بن الربيع بن حَوْط بن قُرْط بن حُسَيْل ابن ربيعة بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم^(١) . فهو الابن الحادي عشر لتميّم ، وقد توفي بعيد سنة ٥٦ هـ^(٢) وربما في عام ٦٠ هـ^(٣) .

(١) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ١ : ٣٧٣ ، وابن حزم ٢١٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٩ .

(٣) الأعلام ٦ : ١٣٤ .

وَقَطْرِيّ بن الفُجاءة هو : قَطْرِي بن جَعُونَة (ولقبه : الفُجاءة) بن مازن
ابن يزيد بن زياد بن حَبْتَر بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو
ابن تميم^(١) . فهو الابن الحادي عشر لتميّم . وقد توفي عام ٧٨ هـ^(٢) .
وأبو عمرو بن العلاء هو : أبو عمرو (زبّان) بن العلاء بن عمّار بن
العُريّان بن عبد الله بن الحُصَيْن بن الحارث بن جُلْهُم بن حُجْر بن خزاعيّ
ابن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم . فهو الابن الثالث عشر لتميّم وقد
توفي في عام ١٥٤ هـ^(٣) .

فإذا قدرنا آخر القرن السادس الميلادي ، نهايةً للجيل الثامن من أبناء
تميّم تقديراً تقريباً ، نضبط به تقديراتنا التقريبية الأخرى ،
وجدنا أن المتوسط الزمني للجيل الذي بعد الثامن في نسب مالك
ابن الريب ، وقطريّ بن الفُجاءة ، وأبي عمرو بن العلاء ، هو
عشرون سنة إلى ثلاثين سنة تقريباً ، وهذا التقدير لزمان الجيل قريب
من تقدير أولندر الذي كرّره في كتابه « ملوك كندة »^(٤) .
وجعل عمر الجيل بين عشرين سنة وخمس وعشرين سنة ، فقد

(١) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ١ : ٣٧١ ، وابن حزم : ٢١٢ وسقط منه « مازن » ، وفيه
« ختثر » مكان « حبتَر » .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٦١١ .

(٣) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين : ٣٤ ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، الخانجي
بمصر ١٩٥٤ م .

(٤) تأليف : جونار أولندر Olinder ، ترجمه وحققه وقدم له الدكتور عبد الجبار المطلبي ، طبع
على نفقة جامعة بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٣ م .

قال^(١): « إن خمسة الأجيال التي سبقت (أي سبقت حُجراً آكل المُرار) تستغرق بين ١٠٠ و ١٢٥ عاماً سواء وضعنا في حسابنا أعوام حكمهم . . . أم لم نضع » ثم يقول إن الحارث حفيد حُجر بن عمرو آكل المُرار مات في عام ٥٢٨ م « فيمكن تعيين زمن حُجر قبل ذلك بجيلين أي بحوالي خمسين عاماً . . . »^(٢) ثم يستدرك بقوله إن هذه « تتصل بفترات زمنية غير محددة تحديداً دقيقاً لأنها مبنية على عدد من الأجيال وما يفترض أن يستغرق معدل كل جيل من السنين »^(٣) .

وقد آن الأوان أن نعود إلى أصل الموضوع الذي أطلنا حوله هذا التطواف ، وهو تقدير زمن الشاعر ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، الذي ذكره الأصمعي من بين الأوائل من الشعراء الذين تروى لهم كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر . فإذا كان الجيل الثامن من أبناء تميم قد عاش في النصف الآخر من القرن السادس ، فإن لنا أن نفترض أن الزمن التقريبي لذؤيب كان في النصف الأخير من القرن الرابع ، وأن نقدر الزمن التقريبي لتميم نفسه في النصف الأول من القرن الرابع . فإن صح ذلك فإن ذؤيباً يكون قد عاش قبل الإسلام بمئتي عام إلى مئتين وخمسين . وذلك كله يجعلنا في نطاق التقديرين اللذين أشار إليهما الجاحظ وهما مئتا عام قبل الإسلام في أحد النصين ، وثلاثمائة عام في النص الآخر .

وحين نطبق هذه المقاييس على شاعر آخر ، من الذين ذكرهم

(١) المصدر السابق ص : ٦٦ .

(٢) ص : ٨٤ .

(٣) ص : ٩٢ .

الأصمعي من بين الأوائل من الشعراء ، الذين تروى لهم كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر، وهو الأَضْبَطُ بن قُرَيْع ، نرى أننا لا نزال في نطاق المدة الزمنية التي حددها الجاحظ . فالأَضْبَطُ هو ابن قُرَيْع بن عوف بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم^(١) . فهو من الجيل السادس من أبناء تميم على حين كان ذؤيب من أبناء الجيل الثالث . فيكون الأَضْبَطُ قد عاش في نحو منتصف القرن الخامس الميلادي ، وبينه وبين ذؤيب ما يزيد قليلاً على نصف قرن . ويظل ذؤيب هو الأقدم زمنياً فيمن عرضنا من الشعراء .

(٣)

فإذا كان ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، والأَضْبَطُ بن قُرَيْع ، هما من أوائل الذين تُروى لهم « كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر » على ما قال الأصمعي في نصّه الذي ذكرناه^(٢) ، فإن أقدمهما ، وهو ذؤيب ، لا يتجاوز خمسين ومئتي سنة قبل الإسلام ، وليس كما ذكر الأصمعي في قوله السابق : « وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمئة سنة »^(٣) . ولا كما قال عمر بن شبة عند ذكره لأوّل « من قصّد القصيد » : « لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمئة سنة أو نحوها »^(٤) بل كان الجاحظ أقرب إلى التقدير الذي ذهبنا إليه حين قدره مرة^(٤) بمئتي عام على الأكثر ، وقدره

(١) ابن الكلبي ، جمهرة النسب ١ : ٣٥٠ ، وأبو حاتم السجستاني ، المعرون والوصايا : ١١ و ١٢ ، عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٦١م ، وفيه « عاش الأَضْبَطُ . . . عمراً ، ثم مات في آخر الزمان ، وقد كان له حمام بالحيرة » .

(٢) انظر ما سبق ص : ٣٨ ، ومجالس ثعلب ٢ : ٤٧٩ - ٤٨٠ .

(٣) انظر ما سبق ص : ٤٠ والسيوطي ، المزهرة ٢ : ٤٧٧ .

(٤) الحيوان ١ : ١٧٤ .

مرة أخرى^(١) بنحو خمسين ومئتي عام قد تزيد قليلاً . وقد جاء التفاوت في التقديرات لأن كلاً منهم ذكر أسماء شعراء يختلف بعضهم عما ذكره غيره . فأكثر الذين ذكرهم عمر بن شبة ينطبق عليهم قوله : « وهؤلاء ، نفر المدعى لهم التقدم في الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمئة سنة أو نحوها » ، وإن كان بعضهم يعود إلى أبعد من ذلك قليلاً ، مثل مهلهل وامرئ القيس . والذين ذكرهم الجاحظ ينطبق عليهم قوله : « فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومئة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام » وذكر - قبل هذه العبارات - اسم مهلهل وامرئ القيس ، فكأنه إنما كان يعنيهما . أما الأصمعي فإن صحّت رواية النص عنه فقد خلط بين شعراء متباعدي العصور ، ولعلّه ذهب إلى تقدير أنه « كان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمئة سنة » لما رآه من قدم زمن ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، وبعد عهده عن الإسلام ، فظن أن ذلك يبلغ أربعمئة سنة ! وقد رأينا أن عصر ذؤيب ، لا يكاد يزيد على خمسين ومئتي عام قبل الإسلام .

ولابن سلام حكم متّصل أوثق اتّصال ببعض الأحكام السابقة ، وذلك قوله^(٢) : « . . . إنما قصّدت القصائد ، وطول الشعر ، على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف » . وهذا لا يعود

(١) الحيوان ٦ : ٢٧٧

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ : ٢٦ .

بنا إلى أبعد من أواخر القرن الخامس^(١)، أي نحو قرن ونصف القرن قبل الهجرة على الأكثر ، وهو تقدير وسط بين تقدير عمر بن شبة وتقدير الجاحظ .

ثم لا يلبث أن يقول^(٢): « وكان أول مَنْ قصَّد القصائد وذكر الوقائع ، المهلهل بن ربيعة التغلبي في قتل أخيه كليب بن وائل ، قتله بنو شيبان . . . وإنما سُمِّي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب ، وهو اضطرابه واختلافه . . . » . وهو قول يتفق مع القول السابق في زمنه ، ويرجع بنا إلى النصف الأخير من القرن الخامس ومطلع القرن السادس الميلادي ، أي بين خمسين ومئة عام ومئتي عام قبل الهجرة ، وذلك هو زمن حرب البسوس .

(١) انظر جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام : ٢٣٣ ، الطبعة الثالثة ، مطبعة الهلال بمصر ، ١٩٣٩ م ، فقد قدر زمن قصي ، جد هاشم ، بأواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد ، ونرى أن هذا التقدير أبعد من زمنه الذي نظنه في نحو منتصف القرن الخامس على الأكثر ، حين نطبق مقياس أعمار الأجيال الذي اتخذناه في هذه الدراسة .

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ : ٣٩ .

الفصل السادس

الأوليّات

فإذا كان هذا القدر كافياً في الحديث عن « أول من تُروى له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر »^(١) أو « أول من قصّد القصيد »^(٢) أو « طول الشعر »^(٣)، فقد آن لنا أن نتحدث عن مرحلة سابقة من حياة الشعر العربي ، وأن نبدأ بابن سلام في قوله^(٤): « ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حاجته . . . فمن قديم الشعر الصحيح قول العنبر بن عمرو بن تميم ، وكان جاور في بهراء ، فراه ريب فقال :

قد رابني من دَلَوِي اضطرابُها والنأي في بهراء واغترابُها
إن لا تجيء ملأى يجيء قرابُها »

وقال^(٥): « كان سعد ومالك ابني زيد مناة بن تميم ، فكان سعد أسودَهما^(٦)، وكان مالك ترعيةً يعزب في الإبل^(٧) . . . فتزوج مالك ابن زيد مناة النوار بنت جل بن عدي بن عبد مناة بن أد . . . فلما

(١) مجالس ثعلب ٢ : ٤٧٩ - ٤٨٠ من كلام الأصمعي .

(٢) السيوطي ، المزهري ٢ : ٤٧٧ نقلاً عن عمر بن شبة في طبقات الشعراء .

(٣) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ١ : ٢٦

(٤) المصدر السابق ١ : ٢٦ .

(٥) المصدر السابق ١ : ٢٨ - ٣٠ .

(٦) أكثرهما سيادة .

(٧) ترعية : يجيد رعي الإبل .

اهتداها مالك خرج سعد في الإبل . . . ومالك في صُفْرة^(١)، وكان عروساً ، فأراد القيام فمنعته امرأته من القيام ، فجعل سعد وهو مشتمل^(٢) يزاول سقيها ولا يرفق ، فقال :

يظلّ يومٍ وردّها مزْعُفراً وهي خناطيلُ تجوسُ الخَضْرَا^(٣)
فقلت النّوار لمالك : ألا تسمع ما يقول أخوك ؟ أجبه . قال : وما أقول ؟
قالت : قل :

أوردّها سعدٌ وسعدٌ مشتملٌ ما هكذا تورد يا سعدُ الإبلُ
ثم قال ابن سلام^(٤) : « ومنهم : المستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد
ابن زيد مناة بن تميم ، كان قديماً ، وبقي بقاء طويلاً حين قال :
ولقد سئمت من الحياة وطولها وازددت من عدد السنين مئينا »

.....

فهؤلاء الأربعة : العنبر بن عمرو بن تميم ، وسعد ومالك ابنا زيد مناة
ابن تميم ، والمستوغر بن ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ،
يعودون بنا مرة أخرى ، إلى ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، وإلى
الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم . فالعنبر
هو عمّ ذؤيب ، أخو أبيه كعب ، والعمّ والأب ابنا عمرو بن تميم ، ولا بدّ

(١) الصفرة : الزعفران ، وكانوا في الجاهلية يدهنون بالزعفران في الأعراس .

(٢) اشتمل الرجل : تلفف بثوبه حتى يجلل به جسده ولا يرفع منه جانباً تخرج منه يده .

(٣) خناطيل : جماعات الإبل متفرقة في المرعى . الخَضْرُ (بفتحين) : سَعَف النخل وجريده الأخضر . ينهكم بمالك وأنه آثر عروسه على إبله .

(٤) طبقات فحول الشعراء ١ : ٣٣ - ٣٤ .

أن عصراً واحداً قد أظللّهما ، وإن كنا نرى - بالمقياس الذي قدّمناه - أن العنبر قد سبق ذؤيباً ، أو ولد قبله بنحو عشرين عاماً إلى ثلاثين . وإنما قلنا إن عصراً واحداً قد أظللّهما ، مع سبق أحدهما ، لأن تداخل الأجيال يتيح اجتماع جيلين وأحياناً ثلاثة أجيال ، في حقبة زمنية مشتركة بينهم ، كما أسلفنا . وكذلك شأن سعد ومالك ، فهما ابنا عمّ العنبر ، وجميعهم من الجيل الثاني من أبناء تميم ، في حين كان ذؤيب من أبناء الجيل الثالث ، فسعد ومالك يسبقان ذؤيباً بمثل ما يسبقه به العنبر من الزمن أو بقريب منه ، وربما كان قد أظللّهم جميعاً عصر واحد ، وإن ولد بعضهم قبل الآخر ، ومات بعضهم بعد غيره . أما المستوغر فهو من أبناء الجيل الخامس ، وهو من رهط الأضبط بن قريع^(١) ، وقد سبقه بجيل واحد .

(٢)

فإذا صحّ ما كنا قد ذهبنا إليه من اتخاذنا أعمار الأجيال مقياساً لتقدير أزمانهم وعصورهم ، فإن العنبر وسعداً ومالكاً هم أقدم جميع من ذكرنا من الشعراء ، ويكونون بذلك قد عاشوا مع جدّهم تميم في النصف الأوّل من القرن الرابع ، وربما امتدّ بهم العمر فلاحقوا سنوات من حياة ذؤيب . أما المستوغر فتقدير زمانه ، بحسب المقياس الذي اتبعناه ، هو الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي ، وربما عاش سنوات من أول

(١) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء : ٣٠٠ .

عمره مع ذؤيب ثم أدرك الأضبط بن قريع ، وعاشا معاً زمناً طويلاً ،
إذ كانا من المعمرين ^(١) .

ولا حاجة بنا إلى تتبع كل من ذكرهم ابن سلام وغيره من هؤلاء
القدماء الذين قالوا شعراً ، ولا سبيل إلى تمحيص ما قاله غير ابن سلام من
علمائنا ، ولا سيما حديثهم عن المعمرين والسنوات التي عاشوها . وقد
اقتصرننا على ابن سلام وحده لأننا رأينا أقرب إلى الاعتدال من سواه ،
ولأنه أطال الحديث في مقدمة كتابه عن الوضع والنحل في الشعر ،
وأنكر كثيراً من الشعر الذي قيل قبل الإسلام . ومهما يكن من أمر فإن
أقدم الذين ذكرهم ابن سلام هم هؤلاء الذين أوردناهم وقدّرنا
عصورهم ، وأما الباقيون فلا يغيرون مما قدّمنا شيئاً ، فزهير بن جناب
- مثلاً - وهو أحد الذين ذكرهم ابن سلام وقال عنه إنه « كان قديماً
شريف الولد وطال عمره » ^(٢) كان « على عهد كليب بن وائل وقد كان
أسر مهلهلاً » ^(٣) وكليب ومهلهل عاشا بعد الذين ذكرناهم ، فقد كانا من
أهل النصف الأخير من القرن الخامس ومطالع السادس .

(١) ذكرهما أبو حاتم السجستاني في « المعمرين والوصايا » : ١١ و ١٢ ، وقال عن الأضبط
« عاش . . . عمراً ، ثم مات في آخر الزمان . . . » وقال عن المستوغر « عاش . . . ثلاث
وثلاثين وثلاثمئة سنة ، وقال قوم : بل ثلاثمئة وثلاثين سنة » وفي هامش نسخة
« المعمرين والوصايا » قال أصحاب الأنساب « عاش المستوغر ثلاثمئة سنة وعشرين سنة
فأدرك الإسلام ، أو كاد يدرك أوله . . . » وفي الشعر والشعراء : ٣٠١ « قال أبو عمر بن
العلاء : عاش المستوغر ثلاثمئة سنة وعشرين سنة » . وقال ابن سلام ١ : ٣٣ « كان قديماً
وبقي بقاء طويلاً » .

(٢) طبقات فحول الشعراء ١ : ٣٥ .

(٣) المعمرين والوصايا : ٣٥ .

ولئن كنا لم نجد حاجة إلى تتبع هؤلاء القدماء ممن قالوا شعراً ، فإننا لا نستطيع أن نتجاوز ما ذكره ابن إسحاق وابن هشام في السيرة^(١) : « قال ابن إسحاق : فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي . . . وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن ، فحزّنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلْكها حزناً شديداً ، فقال عمرو بن الحارث بن مضاض في ذلك ، وليس بمضاض الأكبر » ثم أورد ستة عشر بيتاً منها البيت المشهور :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمّر بمكة سامر
ثم قال : « قال ابن إسحاق : وقال عمرو بن الحارث أيضاً . . . » وذكر ثلاثة أبيات ، قال بعدها « قال ابن هشام : هذا ما صح له منها . وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب ، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن ، ولم يسم لي قائلها » .

فابن هشام إذن لم يشك في نسبة الأبيات الستة العشر الأولى ، بل نراه يقول عن أحد تلك الأبيات : « قال ابن هشام قوله : (فأبناؤه منا) عن غير ابن إسحاق ! فكأنما هو - بهذا الكلام - يؤكد صحة الأبيات التي رواها عن ابن إسحاق . ثم نراه يكتفي بذكر ثلاثة أبيات من قصيدة أخرى لعمرو بن الحارث بن مضاض ، نفسه ، ويؤكد صحتها بقوله

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١ : ١٢٠ - ١٢٢ ، تحقيق السقا والأبياري وشليبي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٣٦ م .

هذا ما صحَّ له منها . وابن هشام ، في السيرة عالم محقق مدقق ، لا يقبل بما يورده ابن إسحاق على علته ، بل يقف عند بعضه وقفات فيها نقد وتصحيح ، وهو الذي يقول عن عمله في السيرة : إنه « تاركٌ بعضَ ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب » (١) . وهو الذي يقول بعد أن ذكر بيتاً (٢) : « الشعر الذي فيه هذا البيت مصنوع ، فذلك الذي منعنا من إثباته » . ويورد ثلاثة أبيات لعبد المطلب بن هاشم ثم يقول : هذا ما صحَّ له منها (٣) . ويورد أبياتاً لسيف بن ذي يزن الحميري ثم يقول (٤) : « وأنشدني خلاد بن قرّة السدوسي آخرها بيتاً لأعشى بني قيس بن ثعلبة في قصيدة له ، وغيره من أهل العلم بالشعر ينكرها له » . ويورد أبياتاً لأبي الصلت ، أو لأمية بن أبي الصلت ، ثم يقول : إن هذا ما صحَّ له مما روى ابن إسحاق منها ، إلا آخرها بيتاً . . . فإنه للنابغة الجعدي (٥) . والأمثلة على ذلك كثيرة تدلُّ كلها على مدى حرص ابن هشام على التثبت مما يورد في الكتاب من الشعر . ولكنه لم يشك في الشعر الذي نسبته إلى عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي ، بل قبله واعترف به وصحَّحه ، بل نقل عن « بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب » ، ولم يفند ذلك ولم يردّه ، فكأنه مسلمٌ بصحّته .

(١) السيرة ١ : ٤ .

(٢) المصدر السابق ١ : ٢٤ .

(٣) المصدر السابق ١ : ٥٣ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٦٧ .

(٥) المصدر السابق ١ : ٦٨ - ٦٩ .

ولولا ذلك ما وقفنا عند هذه الأبيات مثلما لم نقف عند أخبار
المعمرين والشعر الذي قالوه . وكتب تراثنا زاخرة بشعر جرهم وغيرهم
من حمير وسبأ من أبناء قحطان ، مثلما هي زاخرة بأخبار هؤلاء المعمرين
وشعرهم . وقد تجاوزنا ذلك كله أو كثيراً منه ، ولم نترث إلا عند الشعر
الذي نستطيع أن نستنتج منه - على وجه الافتراض - ما يفيدنا في إعادة
النظر في هذا التراث وقراءته قراءة جديدة تعيننا على فهم يختلف عن
الفهم الشائع فيما قدرنا .

ولذلك فنحن لا نستطيع أن نمرّ بهذه الأبيات ، وبموقف ابن هشام
منها ، دون أن نذكر ما عنّ لنا من رأي فيها . فقائل هذه الأبيات
جرهمي ، وجرهم كانت في مكة وحولها على عهد نبي الله إسماعيل
عليه السلام ، وقد تزوج منهم ، وولّوا البيت وأمور مكة بعد نبت
(أو نابت) بن إسماعيل ، ومضوا على ذلك إلى أن بغوا بمكة واستحلّوا
حرماتها . . . فخلفتهم خزاعة على ولاية البيت ^(١) .

(٣)

وقد ذهب كلٌّ من كتب من القدماء عن لغة جرهم ، أنها غير اللغة
العربية الحديثة ، في مرحلتها الجاهلية الأخيرة . فالمسعودي يقول ^(٢) : « ولغة

(١) الطبري ، التاريخ ٢ : ٢٨٤ ، والمسعودي ، مروج الذهب ٢ : ٤٩ - ٥٢ ، تحقيق محمد
محبي الدين عبد الحميد ، ط . الرابعة ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر ١٣٨٤ هـ -
١٣٨٥ هـ = ١٩٦٤ م - ١٩٦٥ م .

(٢) مروج الذهب ٢ : ٧٢ .

جرهم غير هذه اللغة ، ووجدنا لغة ولد قحطان بخلاف لغة ولد نزار بن معدّ ، فهذا يقضي بإبطال قول من قال : إن إسماعيل أعرب بلغة جرهم ، ولو وجب أن يكون إسماعيل . . . عربيّ اللسان لأجل جرهم ونشئه فيه لوجب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم ، أو لغيرها ممن نزل مكة . . . » وجرهم يمانية قحطانية ، وقد تنبّه كثيرون ، إلى اختلاف لغة القحطانية ، عن لغة مضر منذ الجاهلية القديمة ، إلى ما بعد الإسلام بزمان ، ومن أشهر من ذكر ذلك أبو عمرو بن العلاء في قوله^(١) : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعريتنا » . ومنهم ابن جني في الخصائص في قوله^(٢) : « فلسنا نشكّ في بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابني نزار . . . » بل لقد أشار إلى تعاقب مراحل اللغة العربية في لغات متعددة حين تحدث عما يرد عن العربي مخالفاً لما عليه الجمهور قال^(٣) : « قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدُها ، وعفا رسمها ، وتأبّدت معالمها . . . » وخاض مع أبي علي الفارسي في أمر لفظ ذكراه ، ولما لم يبلغنا طائلاً منه قال أبو علي^(٤) : « هو من لغة اليمن ومخالف للغة ابني نزار » ثم يقول :^(٤) « وهذا ونحوه مما يدلّك على تنقل الأحوال بهذه اللغة ، واعتراض الأحداث عليها ، وكثرة تغولّها وتغيّرها » . فهي إذن لغة واحدة ، مرّت بمراحل تعاقبت عليها فأخذت أشكالاً مختلفة باعدت ما بينها في كل مرحلة .

(١) ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء ١ : ١١ .

(٢) ١ : ٣٨٦ ، تحقيق محمد علي النجار ، ط . الثانية ، دار الهدى للطباعة والنشر : بيروت ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٢ م . وابنا نزار هما : مضر وربيعة .

(٣) المصدر السابق ١ : ٣٨٥ - ٣٨٦ .

(٤) المصدر السابق ١ : ٣٨٧ .

فإن كان عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي قد قال هذا الشعر حقاً فهل قاله بلغة جرهم ، ونَقَشَه شعراً ، أو نثرًا بمعناه ، بالخط المسند على حجر باليمن ، بعد خروجه وقومه من مكة وعودتهم إلى بلادهم الأصيلية ، ثم جاء بعد زمن من قرأه ممن يعرف الخط المسند ، وترجمه إلى هذه العربية التي نعرفها ؟ إن كان الأمر قد حدث على مثل هذا فقد رجحنا من قبل أن له نظائر وأشباهاً ، وأن بعض ما يروى من الشعر العربي القديم يفسر بمثل هذا التفسير دون أن نسارع إلى رفضه كله وعده من الخرافات والأباطيل ، ودون أن نقبله كله فنقع نحن في الأوهام والأباطيل .

وإن كان عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي قد قال هذا الشعر حقاً ، ووصل إلينا بهذه اللغة التي نعرفها ، فهل كانت هذه اللغة قد نشأت في عهده ، وتكوّنت وأصبح يقول الناس بها شعراً ؟ ومتى كان عهد عمرو هذا ؟ أسئلة تحتاج إلى التردد الطويل قبل المجازفة بالإجابة عنها ، ثم تحتاج - عند الإجابة - إلى الحذر والاحتياط . وقد قلنا في أمر تحديد العصور إن تلك المحاولات لا تعدو أن تكون افتراضات ترجيحية نصل إليها من خلال أشخاص وأحداث مترابط ، فنجمع الأشباه والنظائر لتلتقي معاً فتوصلنا إلى التقدير الذي وصلنا إليه .

.

.

.

(

—

الفصل السابع

سيل العرم

وعمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر عاش في آخر عهد جرهم بولاية البيت ، وعاصر مجيء خُزاعة وولايتها البيت وإخراجها جرهماً من مكة . وخزاعة إنما خرجت من اليمن وسكنت مكة زمن سيل العرم وخراب سد مأرب أو بعده بقليل^(١) . وقد قال حمزة الأصفهاني عن زمن ذلك كله إنهم « ذكروا أن سيل العرم كان قبل دولة الإسلام بأربعمئة سنة »^(٢) . وربما كان يقوي هذا الذي ذكره حمزة الأصفهاني ما ذكره المسعودي من قوله^(٣) : « وقد كانت ولاية البيت في خزاعة ثلاثمئة سنة » . ونحن نعرف من تاريخنا أن ولاية خزاعة البيت انتهت بتولي قصي بن كلاب الأمر منها . وقصي لا يكاد يتجاوز خمسين ومئة سنة قبل المبعث - وربما أقل قليلاً - إذا استعملنا المقياس الذي اتبعناه في تقدير عصور الأجيال ، فإذا أضفنا إلى هذا الزمن السنوات الثلاثمئة ، التي ذكرها المسعودي لمدة ولاية خزاعة للبيت ، وصلنا إلى أن خزاعة بدأت ولاية البيت قبل الإسلام بخمسين وأربعمئة سنة وربما أقل قليلاً ، وهو ما يجعل تقدير المسعودي وتقدير حمزة الأصفهاني يلتقيان ، وإن اختلف طريقاهما في الوصول إلى هذا التقدير .

(١) المسعودي ، مروج الذهب ٢ : ٥٦ .

(٢) تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء عليهم الصلاة والسلام : ٩٩ ، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦١ م .

(٣) مروج الذهب ٢ : ٥٨ .

ونحن لا نعرف كيف قدّر المسعودي وحمزة هذين الزمنين لولاية خزاعة البيت ولسيل العرم ، إلا أن يكون ذلك من المعارف العامة التي توارثتها الأجيال ، وربما كان مما حفظته نقوش أو سجلات قديمة عفى عليها الزمن الآن . فقد ذكر ابن رسته أن ما جرى لسيل العرم وخراب السد « مثبتٌ عندهم محفوظ إلى اليوم ، ومكتوب على المساند ، وهي أحجار كبار بيض في مواضع عالية ، مكتوب عليها بالكتابة الحميرية ، الأحداث التي كانت مؤرخة . . . »^(١) فإذا كان كل ذلك محفوظاً إلى زمن ابن رسته فقد كان محفوظاً إلى زمن المسعودي وحمزة الأصفهاني ، وكلهم من رجال القرن الرابع الهجري وإن كان ابن رسته أقدمهم ، وربما عاش في النصف الأخير من القرن الثالث . وقد رأى الهمداني - وهو من العصر نفسه - هذه النقوش وأشار إليها في كتابه الإكليل ، ثم بقيت إلى أيامنا هذه ، ولولا ذلك لآتهمنا المسعودي والهمداني وابن رسته وأمثالهم من مؤلفينا بالوضع ، ورميناهم بالكذب ، ووصفنا حديثهم بأنه حديث خرافة ، قال جرجي زيدان^(٢) : « وأوثق روايات العرب عن سد مأرب ما قاله الهمداني في الإكليل وقد شاهد أنقاضه بنفسه في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكان يقرأ المسند ويفهمه ، فوصف تلك الأنقاض مع تطبيقها على قول القرآن . وهذان القولان أصدق ما جاء عن خبر هذا السد ، وأكثر مطابقة لما وجدته النقابون الذين اكتشفوا آثار ذلك الخزان في القرن الماضي . . . » وبعد أن يورد كلام الهمداني في

(١) الأعلام النفيسة : ١١٤ - ١١٥ ، مطبعة بريل - لندن ١٨٩٢ م .

(٢) العرب قبل الإسلام : ١٤٢ - ١٤٣ ، مطبعة الهلال ١٩٣٩ م .

الإكليل يقول : « وظل الناس مع ذلك في شك من أمر هذا السدّ ، حتى تمكن المستشرق الفرنسي أرنو ، من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ ، وشاهد آثاره ، ورسم له خريطة نشرت في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٨٧٤ . وزار مأرب بعده هاليفي وغلازر ووافقاه في قوله ، وصادقا على وصفه ، وهو يطابق ما قاله الهمداني من أكثر الوجوه ، وعثروا في أثناء ذلك ، على نقوش كتابية في خرائب السدّ وغيره ، تحقّقوا بها خبره . وأكثرهم اشتغالا في هذا السبيل غلازر ، وبين الأساطير (١) التي وقف عليها ، اثنان جاء فيهما خبر ترميم السدّ في زمن الأحباش بالقرن السادس للميلاد . فدلّ ذلك على أنه ظلّ قائماً إلى قرب ظهور الإسلام . ولعلّ السبب في نسبة بنائه وتهدمه إلى عصور مختلفة ، وأشخاص مختلفين ، كثرة تصدّعه وترميمه ، فكانوا يعدّون كلّ تصدّع تهدماً ، وكلّ ترميم بناءً . ثم يقول (١) : « وقد عثر النقبّون في أنقاض سدّ مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند ، استدّلّوا منها على بانيه ، أهمّها نقشان . . . ووفق غلازر في أثناء زيارته أنقاض ذلك السدّ ، إلى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطولة ، تتعلق بتهدم السدّ بعد دخول اليمن في حوزة الأحباش ، أحدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ م ، والآخر سنة ٥٦٥ م ، وهما من أهم ما وقفوا عليه من آثار تلك الدولة ، لما فيهما من الإشارات التاريخية والاجتماعية والعلائق السياسية ، أحدهما كتبه أبرهة الحبشي ، وهذه خلاصته : « بنعمة الرحمن الرحيم ، ومسيحه ، والروح القدس ، أن أبرهة عزيز الأحباش

(١) العرب قبل الإسلام : ١٤٦ - ١٤٨ .

الأكسوميين . . . قد نقش هذا الأثر تذكاراً لتغلبه على يزيد بن كبشة ،
عامله الذي كان قد ولاه كندة . . . وبلغ الملك الاستصراخ ، فنهض
بجنده الأحباش الحميريين أُلوفاً ، في شهر ذو القياط من سنة ٦٥٧ (من
تاريخ اليمن) فنزل أودية سبأ . . . فجاء يزيد وبائع ، وخضع للملك بين
يدي القواد . وهم في ذلك ، جاءهم النبأ بتهدم السد ، والحائط ،
والحوض ، والمصرف ، في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ ، فأمر
بالعفو . . . وبعث إلى القبائل بإنفاذ الحجارة للأساس والحجر الخام
والأخشاب ورصاص الصب . . . لترميم السد في مأرب . . . فتوجه أولاً
إلى مأرب ، وصلى في كنيستها ، ثم عمد إلى الترميم ، فنبشوا
الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه . . . ورجع الملك إلى
مأرب بعد أن عقد تحالفاً مع الأقيال الآتي ذكرهم . . . وجاء إليه
وفد النجاشي ، ووفد ملك الروم ، ورسول من المنذر ، وآخر من
الحارث بن جبلة ، وآخرون بعون الرحمن جاءوا يخطبون مودته . . .
وبعثوا إليه من غلة أراضيهم لترميم ما انصدع من البناء ، فرمموه ،
ووسعوه ، حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعاً وارتفاعه ٣٥ ذراعاً . . .
واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوماً و ١١ شهراً (!!) وكان الفراغ منه في
شهر ذو معان سنة ٦٥٨ « ثم يعلق جرجي زيدان على ذلك
بقوله : « وهذه السنة في حساب الحميريين تعدل سنة ٥٤٣
للميلاد ، لأنهم كانوا يبدأون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد ،
ولغلازر كلام في هذا الشأن . . . » .

ولعلّ في كل هذا الكلام ، الذي اختصرناه وحذفنا منه أسماءً وأحداثاً لا تدخل في حديثنا عن سدّ مأرب ، ما يخفف من غلّواء الذين يشكّون فيما أورده القدماء في كتبهم من أخبار النقوش ، وخطوط المسند ، والكتابات الحميرية ، فلا يسارعون إلى تكذيب ذلك كله ، وإنما يعرضونه للمناقشة فيقبلون بعضه وينفون بعضه . وقد ذهب هذا المذهب بعض المستشرقين ، وبعض المؤرخين العرب ، الذين اطلعوا على أعمال المستشرقين والنقوش التي اكتشفوها . فخرجي زيدان يقول^(١) : « وأكثر مبالغات العرب (هي) في القبائل البائدة ، حتى سبق إلى أذهان المحققين من غير المسلمين أنها موضوعة ، ولولا ورود بعضها في القرآن والحديث لقال المسلمون ذلك أيضاً . على أن ورود أسمائها ، وبعض أخبارها ، في كتب اليونان وغيرهم ، أثبت وجودها ، وجاءت الاكتشافات الأثرية بما يؤيد ذلك ، مع إظهار المبالغة في روايات العرب » . ويقول عن الأخباريين العرب^(٢) : « فهذا وأمثاله مما يروونه عن الأمم البعيدة عنهم لا يخلو من حقيقة يجب تجريده منها . ولا ينبغي احتقار رواياتهم ، إذ قد يكون فيها الصحيح مبالغاً فيه ، فإذا قالوا إن سبأ بن قحطان حكم ٤٨٠ سنة ، فلا ينبغي لنا أن ننبد هذا القول لبعده عن المعقول ، بل نؤوله

(١) العرب قبل الإسلام : ٩ .

(٢) المصدر السابق : ١٣ .

إلى أن المراد : دولة سبأ ، أو أمة سبأ » . ويقول عنهم^(١) : « فقد ذكروا كثيراً من مدافن حمير ، وقرأوا ما عليها من الآثار ، وتناقلوه ، فوصل إلينا محشوراً بمبالغات يراد بها العظمة أو الوعيد » ، ويصف أعمالهم بقوله^(٢) : « على أن هذا التناقض أو الخلط لا يخلو من حقيقة تاريخية ، على المؤرخ الباحث تجريدها من تلك الشبهات » . وقال الدكتور جواد علي^(٣) : « وليست هذه القصص والحكايات التي رواها الأخباريون عن سد مأرب وعن جنان سبأ باطلاً ، إنها صدى ذلك العمل العربي الكبير » .

ونعود إلى النقش الذي اقتبسناه ، وإلى تاريخه ، وتعليق جرجي زيدان أو غلازر على هذا التاريخ ، وكل ذلك يحتاج منا إلى وقفة تزيل الاختلاف بينه وبين ما ذكرناه من زمن سيل العرم وخراب سد مأرب ، وهو القرن الثالث الميلادي . فالتاريخ الذي يشير إليه النقش ليس هو - فيما نرى - التاريخ الذي أشار إليه المؤرخون المسلمون ، وليس هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ، فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرَى

(١) العرب قبل الإسلام : ١٤ .

(٢) المصدر السابق : ١٥ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢ : ٢٨٤ .

الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا
آمِنِينَ ، فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَقْنَاهُمْ كُلُّ مِزْقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١﴾ .

فسد مأرب تهدم مرّات متعددة ، وقد أشار إلى ذلك عدد من
المؤرخين المحدثين ، منهم جواد علي الذي فصلّ القول في مراحل بناء
السدّ وخرابه فقال عن نقش (514 Glaser)^(٢) : « إن هذه الكتابة هي
وثيقة ترجع تاريخ السدّ إلى جملة مئات من السنين سبقت الميلاد ، ترجعه
إلى حوالي السنة ٧٥٠ ق . م . على رأي بعض الباحثين » ثم قال ^(٣) : « وقد
ظلّ حكام سبأ . . . يجرّون إصلاحات ، ويحدثون إضافات على سد
مأرب ، ويرممون ما يتصدّع منه ، كما يظهر ذلك من الكتابات .
وقد تعرّض مع ذلك للتصدّع مراراً . وكان آخر حدث مهم وقع له
هو التصدّع الذي حدث في سنة ٥٤٢ ب . م . وذلك في أيام أبرهة
(يشير إلى النقش السابق الذي أوردناه) . ويظهر أن تصدّعاً آخر
وقع له بعد هذه السنة ، فأتى عليه . . . » وقال ^(٤) : « ويرى فون
وزمن أن دمر على يهباز . . . قام هو وابنه ثارن (ثاران) بترميم
سدّ مأرب وبناء المواضع التي تخربت منه . . . وذكر أن تخرب السد
هذا هو تخرب لم يصل خبره إلينا » . وكان فون وزمن قد قدر

(١) سبأ : ١٥ - ١٩ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢ : ٢٨٢ .

(٣) المصدر السابق ٢ : ٢٨٥ .

(٤) المصدر السابق ٢ : ٥٢٢ .

زمن حكم ذمر على يهبار بنحو عام ١٠٠ بعد الميلاد^(١) ، ثم قال جواد علي^(٢) : « وذكر فون وزمن أن ذمر على يهبار حكم مع ابنه ثارن يهنعم في الشطر الثاني من أيام حكمه ، وذلك فيما بين السنة ٣٤٠ والسنة ٣٦٠ للميلاد ، وجعل في حوالي هذا العهد خراب سد مأرب للمرة الثانية » . ثم ذكر أن سد مأرب تصدع للمرة الثالثة في عهد ثارن يهنعم^(٣) . ثم يورد نصاً منقوشاً ويقول^(٤) : « ويظهر من هذا النص أن السد تهدم بعد مدة قصيرة وذلك في شهر ذو ثبتن (ذو الثبت) من سنة ٥٦٥ من التقويم الحميري » . وقدّر ذلك بما بين سنة ٤٥٠ وسنة ٤٥٦ للميلاد ، « فلم يصلح فترك الناس مزارعهم واضطروا إلى الهجرة منها ، وإلى ذلك وردت الإشارة في القرآن الكريم »^(٥) .

وكان قد ذهب هذا المذهب عدد من المستشرقين والعرب^(٦) ، فأروا أن ما جاء في كتاب الله عز وجل عن سيل العرم إنما هو إشارة إلى خراب السد في عام ٤٥٦ م . وهو أمر لا يستقيم مع ظاهر اللفظ في هذه الآيات الكريمة ، فقد ربط المفسرون والمؤرخون المسلمون بينها وبين تفرق سبأ ، وانتشار قبائلها في أنحاء بلاد العرب ، ومنها خزاعة التي ذهبت إلى مكة فنزلتها ، ولم تلبث أن انتزعت ولاية البيت من جرهم . « ونزلت

(١) الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢ : ٥٢١ .

(٢) المصدر السابق ٢ : ٥٢٦ .

(٣) المصدر السابق ٢ : ٥٦٦ - ٥٦٧ .

(٤) المصدر السابق ٢ : ٥٨٠ .

(٥) المصدر السابق ٢ : ٢٨٣ .

(٦) جرجي زيدان ، العرب قبل الإسلام .

طائفة أخرى منهم الشام ، وهم الذين تنصروا فيما بعد ، وهم : غسان وعاملة وبهراء ولخم وجذام وتنوخ وتغلب وغيرهم ^(١) . قال ابن إسحاق ^(٢) : « وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن - فيما حدثني أبو زيد الأنصاري - أنه رأى جرذاً يحفر في سد مأرب . . . فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك ، فاعتزم على النقلة من اليمن . . . وقالت الأزد : لا تتخلف عن عمرو بن عامر . . . وخرجوا معه . . . ففرقوا في البلدان ، فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يشرب ، ونزلت خزاعة مرّاً ^(٣) . . . ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، ففيه أنزل الله ، تبارك وتعالى ، على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَآءًا فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ » .

فهؤلاء جميعاً إنما رحلوا عن اليمن ، ونزلوا في تلك المواضع ، قبل الإسلام بزمان طويل ، يتفق مع الزمن الذي قدره حمزة الأصفهاني ، والمسعودي ، لحدوث سيل العرم ، وخراب سد مأرب ، وهو أربعمئة سنة قبل الإسلام . وهو الزمن الأول الذي ذكره أبو الفداء في تاريخه لمدة الغساسنة ، قال ^(٤) : « وقد اختلف في مدة ملك الغساسنة ف قيل أربعمئة سنة

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ٢ : ١٦٠ ، دار الفكر : بيروت ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .

(٢) السيرة ١ : ١٣ - ١٤ .

(٣) هو مر الظهران ، وهو على مرحلة من مكة .

(٤) المختصر في أخبار البشر ١ : ٧٣ ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

وقيل ستمئة سنة وبين ذلك » . وقد ناقش جرجي زيدان^(١) مدة الغساسنة وعدد ملوكهم وسنوات حكمهم ، وعارض في ذلك ما ذهب إليه نولدكه ، ووافق أبا الفداء في تقديره ، وانتهى إلى أن جفنة بن عمرو حكم من نحو سنة ٢٢٠ م ، أي أربعمئة سنة قبل الإسلام ، وهو ما يتفق مع التاريخ الذي قدره حمزة والمسعودي لخراب سدّ مأرب ، ونزوح بعض قبائل سبأ ، ومنها : خزاعة إلى الحجاز ، وآل جفنة بن عمرو بن عامر إلى الشام .

ونص ^سالنقش الذي أوردناه ، كتبه أبرهة الحبشي بعد احتلال الأحباش لليمن ، في أوائل القرن السادس الميلادي . وقد أدرك المؤرخون المسلمون أن خراب سدّ مأرب بسيل العرم ، حدث قبل ذلك بزمان . قال المسعودي^(٢) : « وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرخ بتواريخ كثيرة ، فأما حمير وكهلان ابنا سبأ . . . بأرض اليمن فإنهم كانوا يؤرخون بملوكهم السالفة من التبابعة . . . وأرخوا بعام السيل ، وهو سيل العرم ، الذي ذكره الله ، عزّ وجلّ ، في القرآن وخروج عمرو بن مزيقياء . . . من مأرب . . . في قومه من الأزد . . . وتفرّقهم في البلاد ، ثمّ أرخوا بظهور الحبشة على اليمن ، ثم غلبة الفرس على اليمن ، وإزالة الحبشة إلى أن جاء الله بالإسلام » .

فهذه أحداث متتابعة ، يُستنتجُ منها ، أن المسعودي كان يرى أن سيل العرم ، وخراب السدّ ، كانا قبل ظهور الحبشة على اليمن بزمان ،

(١) العرب قبل الإسلام : ١٧٤ - ١٧٩ .

(٢) التنبيه والإشراف : ٢٠٢ .

لاستعماله « ثم » بينهما . ومن نصّ على ذلك نصّاً صريحاً ابن كثير ، قال^(١) : « وليس جميع سبأ خرجوا من اليمن لما أُصيبوا بسيل العرم ، بل أقام أكثرهم بها ، وذهب أهل مأرب ، الذين كان لهم السدّ ففارقوا في البلاد . . . إنما تشاءم منهم أربعة ، وبقي باليمن ستة وهم : مذحج ، وكندة ، وأنمار ، والأشعريون - وأنمار هو أبو خثعم - وبجيلة ، وحمير . فهؤلاء ست قبائل من سبأ أقاموا باليمن ، واستمرّ فيهم الملك والتبابعة ، حتى سلبهم ذلك ملك الحبشة ، بالجيش الذي بعثه صحبة أميره أبرهة وأرياط ، نحواً من سبعين سنة ، ثم استرجعه سيف ابن ذي يزن الحميري ، وكان ذلك قبل مولد رسول الله ﷺ ، بقليل . . . » .

أما ما ورد في معجم البلدان من قوله^(٢) « وأما خبر خراب سدّ مأرب ، وقصة سيل العرم ، فإنه كان في ملك حبشان » فقد وقف عنده جرجي زيدان كالشاك في صحته ، قال^(٣) : « ولعله يريد الأحباش ، لأنهم لما فتحوا اليمن في القرن السادس ، حربوا كثيراً من قصورها وأبنيتها ، أو لعلّه أراد حسان ، بتصحيف اللفظ ، كما أراد ابن خلدون ، فقد ذكر أن السدّ تهدّم في أيام حسان بن تبيان أسعد^(٤) » (في

(١) البداية والنهاية ٢ : ١٦١ .

(٢) مأرب : ١٠٥ .

(٣) العرب قبل الإسلام : ١٤١ - ١٤٢ .

(٤) في تاريخ ابن خلدون ٢ : ١٠٤ « وقال السهيلي : في أيام حسان تبع كان خروج عمرو بن مزيقيا من اليمن بالأزد ، وهو غلط من السهيلي لأن أبا كرب أباه (يريد أبا حسان تبع) إنما غزا المدينة ... » فابن خلدون لم يذكر أن السدّ تهدّم في أيام حسان ، بل إن السهيلي هو الذي قال ذلك ، ونفاه ابن خلدون وردّ عليه قوله .

القرن الخامس للميلاد) « . وإذا أخذنا بالجدول الذي أثبتته جرجي زيدان في كتابه^(١) عن ملوك سبأ ، وريدان ، وحضرموت ، فإن حسان بن أسعد يكون قد حكم خمس سنوات من ٤٢٠ م إلى ٤٢٥ م ، أي قبل الإسلام بمئتي سنة . وهو تاريخ لم نجد أحداً من المؤرخين المسلمين ذهب إليه ، بل إن ابن خلدون ، الذي استشهد به جرجي زيدان ، نسب حدوث خراب سد مأرب ، زمن حسان ، إلى السهيلي ثم نفاه ولم يأخذه .

ولنا أن نأخذ بما ذهب إليه ثلاثة من أشهر المؤرخين المسلمين هم : حمزة الأصفهاني ، والمسعودي ، وأبو الفداء ، وقد انتهى كل منهم إلى تحديد زمان سيل العرم ، وخراب سد مأرب ، من طريق يختلف عن طريق الآخر ، بل إن اثنين منهم ، هما المسعودي وأبو الفداء ، لم يقصدا إلى تحديد زمن خراب السد ، وإنما حدد أولهما مدة ولاية خزاعة البيت ، وحدد ثانيهما مدة الغساسنة ، وكانت خزاعة والغساسنة ، من فروع قبائل سبأ ، التي خرجت من مأرب زمن سيل العرم ، وخراب السد ، وبذلك انتفى التواطؤ والنقل بين هؤلاء المؤرخين الكبار الثلاثة .

(١) ص : ١١٦ .

الفصل الثامن

خاتمة

3

4

5

فإن كان قد رجح لدينا أن زمن خراب سدّ مأرب - في المرة التي نَزَحَتْ فيها من اليمن بعض قبائل سبأ - كان قبل الإسلام بأربعمئة سنة ، أي في مطلع القرن الثالث الميلادي ، فإن الذي كنّا قد وصلنا إليه من أن زمن أوائل الشعراء الذين قالوا « أبياتاً » في « حاجتهم » قبل « تقصيد القصائد » - على ما ذكر محمد بن سلام - يقف بنا عند مطلع القرن الرابع الميلادي ، على أبعد تقدير ، أي نحو ثلاثمئة سنة قبل الإسلام . فإذا كان كل ذلك صحيحاً ، أو قريباً من الصحيح ، فإننا نستبعد أن يكون عمرو بن الحارث بن مضاض ، قد قال ما قاله - قبل ذلك بمئة سنة - باللغة العربية الحديثة ، التي كانت لا تزال في بدء نشوئها وتكوّنها ، أو في طريقها إلى النشوء والتكوّن .

فإن كان عمرو بن الحارث بن مضاض هو قائل تلك الأبيات - وهي أبيات سليمة البناء ، صحيحة العروض ، سلسة اللغة ، مكتملة النسيج فربما قالها بلغة جرهم ، ثم « وُجِدَتْ مكتوبة في حجر باليمن » ثم ترجمها إلى اللغة العربية الحديثة ، أحد من كان يعرف لغة جرهم أو حمير . أما « أن هذه الأبيات أول شعر قيل في العرب » فكلام لا يتفق مع ما ذهبنا إليه . فإن كانت تلك الأبيات قيلت بلغة جرهم ، فلا شك أن لجرهم شعراً قبله ، قالته في أحداث تاريخها الطويل ، ونظمته شعراؤها في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم . وإن كانت تلك الأبيات قيلت كما وصلت إلينا باللغة العربية الحديثة - وهو ما رجّحنا أنه مستبعد ، لأن اللغة العربية الحديثة ، لم تكن في مطلع القرن الثالث الميلادي قد تكونت بعد ، أو أنها كانت في بدايات تكونها - فإن تلك الأبيات لا يمكن أن

تكون « أول شعر قيل في العرب » لا كتمال بنائها وسلاسة لغتها ،
ولا بدّ أن تكون قد سبقتها مراحل من التطور الشعري .

(٢)

ولا ريب في أن كلّ ما تقدم إنما هو اجتهادات وافتراضات ، قامت
على بعضها شواهد عقلية أو نقلية ، سندت تلك الافتراضات وقوتها ، وإن
لم ترق هذه الشواهد لتصبح أدلة قاطعة . وقد كرّرت هذه المعاني مراراً
بألفاظ وعبارات مختلفة ، لأنفي ما قد يتبادر إلى الذهن من التسليم
المطلق ، بصحة كل ما ناقشته وأوردته في هذه الفصول ، وإنما سقته ليكون
موضع تدبر ومناقشة ، فلا ينفي ويرفض بغير دليل ، ولا يثبت ويقبل بغير
دليل ، فإن عزّ الدليل اليقيني في الحالتين - وهو عزيز حقاً - فلا أقلّ من
الاعتماد على مجموعة من المحاكمات العقلية ، والنصوص النقلية ، التي
يُستأنس بها ، للوصول إلى ترجيح يفيء إليه الدارس وإن لم يطمئن إليه
كل الاطمئنان .

وبعد ،

فلا بدّ أن يتبادر إلى أذهان الدارسين بعد كل ما تقدم تساؤل عن
النماذج الأولى للشعر العربي ، في مراحل نشأته المبكرة ، حين كان
الشاعر العربي لا يزال يتلمّس طريقه اللغوي والفني ، يكبو وينهض ،
ويخطيء ويصيب ، ويتعثر في سيره ويستدّ ، إلى أن استقامت له اللغة
وأسلس العروض .

ولا سبيل إلى الإجابة عن هذا التساؤل ، ولا إلى اكتشاف هذه
النماذج الأولى لأنها موعلة في القدم ، بدأت مع بدء هذه الأمة في

الوجود ، وهو تاريخ لا سبيل إلى معرفته وتحديدده . فقد غنى العربي الأول
بالنماذج الأولى من الشعر بلغت التي كانت له في تلك المرحلة السحيقة ،
ثم توالى مسيرته التاريخية وتداخلت ، وكانت القبائل العربية تتوالى ،
فتفننى قبيلة وتزول ، أو تتداخل في قبيلة أخرى ، وتتواصل مسيرة هذه
الأمة ، في موكب متعدد الزمان والمكان ، جمع في إطاره الأمة بقبائلها
البائدة والعاربة والمستعربة وربما أيضاً بشعوبها البابلية ، والآشورية ،
والآرامية ، والكنعانية ، والفينيقية ، والعمونية ، وغيرها وغيرها كثير ، في
موسط شبه الجزيرة العربية ، وجنوبيها ، وشرقيها ، وشمالها ، في اليمن
واليمامة وفيما بين النهرين ، وبلاد الشام - على رأي من ذهب إلى أن
تلك الشعوب كانت عربية الأصل ، أو على الأقل كانت عربية المنشأ ،
خرجت من الجزيرة العربية - ومع توالي المسيرة التاريخية الحضارية
لهذه الأمة وتداخل مراحلها ، توالى مراحل اللغة العربية في لهجات
متعددة ، وأنواع من الخطوط والكتابات ، وتداخلت هذه المراحل حتى
أصبح من العسير - حتى الآن - معرفة نهاية المرحلة السابقة ، ومبدأ
المرحلة التالية . وقد رأينا - في نقش النمارة الذي ذهبنا إلى أنه يمثل اكتمال
نشأة اللغة العربية الحديثة - وجود كلمات هي من بقايا لغة عربية سابقة .

وعسى أن أستطيع - أو يستطيع غيري - أن يضيف إلى هذه
الدراسة ما ينقصها ، فتكتمل جوانبها بتلك الإضافة ، أو أن تقدم لنا
الكشوف والتنقيبات الحديثة المتوالية من النماذج أو المعارف ما لم تقدمه لنا
الكشوف والتنقيبات السابقة .

والله سبحانه هو الموفق

من مؤلفات الأستاذ الدكتور ناصر الدين الأسد

- ١ - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية
- ٢ - القيان والغناء في العصر الجاهلي
- ٣ - الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن (نفذ)
- ٤ - الشعر الحديث في فلسطين والأردن (نفذ)
- ٥ - خليل بيدس ، رائد القصة العربية الحديثة في فلسطين (نفذ)
- ٦ - محمد روهي الخالدي ، رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين (نفذ)
- ٧ - تصورات إسلامية في التعليم الجامعي والبحث العلمي
- ٨ - نحن والآخر . . صراع وحوار
- ٩ - نحن والعصر . . مفاهيم ومصطلحات إسلامية
- ١٠ - جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى - لابن حزم (تحقيق بالاشتراك مع الدكتور إحسان عباس)
- ١١ - تاريخ نجد - تأليف حسين بن غنام (تحرير وتحقيق)
- ١٢ - ديوان قيس بن الخطيم (تحقيق)
- ١٣ - ديوان شعر الحادرة (تحقيق)
- ١٤ - مصحف الشروق المفسر الميسر (تحرير وتحقيق)
- ١٥ - يقظة العرب ، تأليف جورج أنطونيوس (ترجمة من الإنجليزية بالاشتراك مع الدكتور إحسان عباس)